

أبي
العلاء
المعري

دراسات



حكيم المعرفة

عمر فرّوخ



٨

حَكِيمُ الْمَعْرِفَةِ

احمد بن عبد الله بن سليمان المعري

ان محاولة ترتيب الزوميات ترتيباً تاريخياً ،
والفصل بين آراء المعري الاصيلة وبين آراء المتفلسفين
والمتكلمين التي استعرضها المعري في لزومياته ، ثم
فهم معنى الشك (الفلسفي) ، كل هذه تسفي التناقض
الذي يتهم به بعضهم حكيم المعري .

تأليف

عزفون

دكتور في الفلسفة

طبعة الكشاف بيروت

١٩٤٤

الفهرست

الكلمة الاولى

صورة رمزية لابي العلاء المعري

١١ — ٥

عصر المعري وترجمته

٥

صورة عصره في الشرق والغرب

٧

موجز ترجمته

١٩ — ١٢

عناصر شخصيته

٢٣ — ٢٠

مقامه في تاريخ الفلسفة

٤١ — ٢٤

موجز فلسفته وخصائصها

٣٤

ترتيب اللزومات ترتيباً تاريخياً

٣٤

اتجاه المعري في اللزومات

٨٤ — ٤٢

بنسب آرائه الفلسفية

٤٢

استعراض آراء الفلاسفة

٤٤

آراؤه الاصلية :

الايان بالله ، الملائكة والرسل والشرائع والمذاهب ، التقوى ،
هدى العقل ، المجتمع ، الطبيعة البشرية ، السياسة والادارة ،
رجال الدين ، العامة ، المرأة والزواج والنسل ، الزهد واعتزال
الناس ، الجسد والروح ، فلسفته الاخلاقية ، فلسفته الطبيعية .

١٠٤ — ٨٢

المعري والفلسفات الاجنبية

٨٤

مدى الاثر الاجنبي في فلسفة المعري

٨٥

المعري والمذهب الدرزي خاصة

٨٩

اثر المعري في الشرق والغرب :

٨٩

عمر الخيام ورباعياته

٩٤

دانتي والكوميديا الالهية

١٠١

ملتن والفردوس المفقود

مزاعم التناقض في آراء المعري



يزعم بعض المتأدبين من الذين يتناولون الموضوعات الفلسفية ان المعري متحير متشكك متناقض متردد ، ثم يزعمون ذلك بابيات مفردة يساخونها من اللزوميات سائلاً عرفياً ويلفّقون بعضها الى بعض كما يهْوون او على ما يصل اليه . بلغ علمهم . وعندى ان ذلك افتراء على المعري لامور اربعة :

- ٠ ١ ان المعري يجاي في الامور العملية ؛ اما في ما وراء الطبيعة فهي لا ادري .
- ٠ ٢ ان اكثر ما يبدو متناقضاً عند المعري هو آراء الفلاسفة الآخرين التي يوردها المعري ليبدل على تناقضها هي نفسها او مناقضة بعض الفلاسفة بعضاً فيها .
- ٠ ٣ ان اصحابنا المتأدبين ينزعون الشواهد بيتاً بيتاً ، ويتزعمونها كما يشاؤون ؛ ولو انهم استشهدوا بكل لزومية كاملة لوجدوا الامر على عكس ما يظنون .
- ٠ ٤ اكبر الظن ان المعري نظم اللزوميات عموماً حسب ترتيبها الحالي واكن كان ينظم بين الفينة والفينة مقطوعات على حروف روي تتفق له فيلحقها بما كنها ؛ بمن اجل ذلك لانستطيع ان نفهم تطور فكر ابي العلاء المعري الا اذا عرفنا ترتيب اللزوميات الصحيح . ثم ان هذه اللزوميات لم تنظم في عام ولا اثنين ، بل في اعوام متطاولة ؛ وليس من المستغرب في مثل هذه الحال ان يتبدل رأي الرجل بعض التبدل كما نرى عند بعض الفلاسفة المتقدمين منهم والمتأخرين .

ان حكيم المعرفة يستحق منا عناية كبيرة وانصافاً اكبر .

١ - عصر المعري وترجمته

صورة عصره في الشرق والغرب
موجز ترجمته - رهين المحابس الثلاثة

عصره ولد المعري قبل ان تنشب الحروب الصليبية بقرن وربع قرن ؛ ثم ودع
لدنيا وقد بقي من السلم الذي سبق تلك الحروب المشؤومة اربعون عاماً . تلك حقبة
كانت ميدان اضطراب سياسي واجتماعي في الشرق والغرب معاً ؛ وكانت عهد انتكاس
ديني وخُلُقي . ولقد ظهر اثر ذلك كله في شعر المعري .

اما خلفاء بغداد فقد عاصر المعري ثلاثة منهم : الطائع (٣٦٣ - ٣٨١ هـ ، ٩٧٤
- ٩٩١ م) وفي ايامه قويت شوكة آل بويه ووصل عضد الدولة البويهبي الى بغداد .
ثم ان البويهيين قبضوا على الطائع ولوا مكانه القادر فكث في الخلافة واحداً واربعين
عاماً . ثم جاء القائم فكث خمسة واربعين عاماً اُخر حتى عام ٤٦٧ هـ (١٠٧٥ م) .
في هذه الحقبة كانت السلطة الصحيحة في ايدي بني بويه يعزلون الخلفاء ويؤاؤنهم ،
ويديرون الخلافة فعلاً من عاصمتهم شيراز في فارس ؛ واكتنهم تركوا القاب الخلافة
ورسومها للخلفاء الضعاف واتخذوا لانفسهم القاباً جديدة ادل على نفوذهم وسيطرتهم ،
فان معز الدولة احمد بن بويه لما استولى على بغداد في جمادى الاولى ٣٣٤ (كانون
الاول ٩٤٥) اضطراً خليفته المستكني الى ان يستقبله وان يلقبه بلقب امير الامراء .
اما عضد الدولة اخوه فقد تسمى باسم شاهنشاه (ملك الملوك) وتمتع بجميع امتيازات
الخلافة ما عدا اسمها .

وكان عهد البويهيين من اسوأ العهود من حيث الاضطراب السياسي والاداري في
العراق خاصة ، ومن حيث الفتن الدينية في العراق على الاخص ؛ ولكنه كان عهد
عمران وابهة وانتاج ادبي خصب ؛ وفي ايامهم ظهرت جماعة اخوان الصفا . ولقد زالت
الدولة البويهية قبل وفاة المعري بعامين ، فان الخليفة القائم بامر الله لما ضاق ذرعاً بقتنة
البساسيري الدينية - وكان البساسيري احد امراء الجند البويهيين - استنجد بطغرل
بك زعيم السلاجقة ، فدخل طغرل بك بغداد وطرده البساسيري واتباعه منها . ثم توطدت

سلطنة طغرل بك في بغداد وُخطب له فيها على المنابر (٤٤٧ هـ) .
وفي اقصى المشرق كانت الدولة السامانية في مجارى تنشر الاسلام فيما وراء النهر
(جيحون) وتشجع العلم ، فقد نزل في بلاط السامانيين الطبيبان الفيلسوفان ابو بك
محمد بن زكريا الرازي والشيخ الرئيس ابن سينا . وفي بلاطهم نقل قسم من تاريخ الطبري
الى الفارسية ، وبدأ الفردوسي صاحب الشاهنامه حياته الادبية .
وفي غزنة بالافغان قامت الدولة الغزنوية التي حافظت على صلاحها الحسنة بخلف
بغداد ؛ وقد كان للسلطان محمود اشهر سلاطينها (٣٨٨ - ٤٢١ هـ ٩٩٤ - ١٠٣٠ م)
فتوح جليمة في الهند ، وعناية عظيمة بالعلم والادب ؛ عاش في بلاطه الرياضي الفيلسوف
ابو الريحان البيروني والشاعر الفارسي الكبير ابو القاسم الفردوسي .
واما الاندلس فقد كان عهد الزهو فيها قد انقضى بموت عبد الرحمن الناصر (٣٥٠
٩٦١ م) ؛ ولما توفي الحكم بن عبد الرحمن الناصر (٣٦٦ هـ) بدأت الفتن في المغرب
واخذ الحجاب والوزراء يستبدون بامور الخلافة الاندلسية . ثم نبعت ملوك الطوائف
في الاندلس نفسها ، يكتفي كل واحد منها بان يحكم بلداً صغيراً ويناجز على الاحتفاظ
به جيرانه من الامراء المسلمين ويستعين عليهم في اكثر الاحيان بامراء الفرنجة الذين
كانوا يبذلون كل ما في طوقهم لاجراج العرب من الاندلس كلها .
وقبل ان يرى ابو العلاء النور استطاع جوهر الصقلي ان يفتح مصر باسم الفاطميين ؛
وقد امتد حكم الفاطميين بعد ذلك من المحيط الاطلسي الى البحر الاحمر ثم الى
الحجاز وسورية والموصل ؛ وطعموا بان يفتحوا بغداد وان يغزوا الاندلس . وقد عاصر
المعري من الخلفاء الفاطميين اربعة : ابا منصور نزار العزيز (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ ٩٧٥ -
٩٩٦ م) وهو اول خليفة فاطمي في مصر ، ثم الحاكم بامر الله ثم الظاهر ثم المستنصر
(٤٢٧ - ٤٨٧ هـ ١٠٣٥ - ١٠٩٤ م) .
وامتاز عهد الفاطميين في مصر بالبناء وبالعلم ؛ فالحاكم بامر الله هو الذي انشأ دار
الحكمة او دار العلم (٣٩٦ هـ ١٠٠٥ م) لتعليم المذهب الفاطمي ونشره . وفي ايام
الحاكم انتشر المذهب الدرزي في سورية .
اما اوروبة فلم تكن اقل اضطراباً ؛ فان كان المعري قد عاصر ثلاثة من خلفاء

بعداد واربعة من خلفاء القاهرة ، فانه قد عاصر اثنين وعشرين من باباوات رومية .
كانت انكلترة لا تزال تحت حكم ملوكها الانكلوسكسونيين ، تقاوم الغزاة
للدغركيين . وقد توفي المعري قبل ان ينزل النورمان في انكلترة (٤٥١ هـ ١٠٦٦ م) .
واما فرنسة فكان فيها الاسرة الاولى من آل كابت الاقطاعيين ؛ وكانت المانية في
ذلك الحين تغزو ايطالية وتنازع البابا سيادته على كنائس المانية نفسها . وكذلك
كانت اوروبة كلها غارقة في الحياة الاقطاعية بكل ما في الاقطاع من مساوي . نزاع
بين الامراء ، واستعباد الافراد والجماعات ، وتأخر في الحياتين الاقتصادية والاجتماعية ،
وتنازع بين رجال الدين ورجال السياسة .

وكذلك عاصر المعري الاسرة البازيلية في الامبراطورية البيزنطية معاصرة تامة
(٩٦٣ - ١٠٥٧ م) في ايام زهوها الاولى وفتوحها في سورية وايطالية والبلقان ، وفي
ايام انحطاطها . ولما توفي المعري وحُلع ميخائيل السادس في عام واحد ، كانت الامبراطورية
البيزنطية قد اشرفت على الانحدار بعد عهد مظلم من المؤامرات العسكرية ، وبعد ان
تنازع ادارة الامبراطورية خصيان القصر الملكي ، ورحيكت المؤامرات في المخادع
وعلى السرور .

واما سورية ، موطن المعري ، فلم تكن اقل فوضى ولا ايسر حالاً : كان الحمدانيون
لا يزالون يحكمون قسماً من شمالي سورية مهدداً باطماع الفاطميين وغزوات الروم . ولما
زالت الدولة الحمدانية عام ٣٩٤ هـ (١٠٠٣ م) قامت على انقاضها الدولة المرداسية وهي
دولة عربية بدوية كثرت الفوضى في زمنها ، وان كان المعري قد تمتع بمكانة عظيمة
عند مؤسسها واول ملوكها اسد الدولة ابي علي صالح بن مرداس (ت ٤٢٠ هـ ١٠٢٩ م) ؛
اما المعري نفسه فلم يكن راضياً عن صالح لما ستعلمه في مكانه .

هذا ما يتعلق بالحياة السياسية في عهد المعري ، اما ما يتعلق بالحياة الاجتماعية
والعقلية وما اليها فهو موضوع لزمومات المعري التي هي موضوع هذه الدراسة .

*

موجز ترجمته يرجع نسب المعري الى تنوخ من عرب الجنوب الذين هاجروا

الى الشام بعد انفجار سد مأرب باليمن في اواسط القرن السادس للميلاد . وكان بيت
شاعرنا في المعرة بيت وجاهة وثراء . وعلم وقضاء . تولى جد جده قضاء . المعرة
قضاء حمص (٢٩٠ هـ ، ٩٠٢ م) . ثم تولى القضاء . عمه محمد ثم والده عبد الله (ت بمحصر
٣٧٧ هـ ، ٩٨٧ م) . وكذلك كانت امه من اسرة وجيهة في حلب على الاغلب تعرف
بالسبيكة « اشتهر منها غير واحد بالوجاهة والادب » .

اما المعري نفسه ، وهو ابو العلاء احمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد . . . فقد ولد
يوم الجمعة عند المغيب في ٢٧ ربيع الاول ٣٦٣ (٢٦ كانون الاول ٩٧٣) . ولما بلغ ثلاث
سنوات ونصف سنة اصيب بالجدري فذهبت يسرى عينيه وغشي اليمنى بياض ، وقبل
ان يتم السادسة فقد بصره جملة واحدة .

ونشأ المعري في المعرة واخذ فيها عن ابيه شيئاً من اللغة والادب ، وعن يحيى بن
مسعر شيئاً من الحديث . ولما بلغ المعري الرابعة عشرة توفي ابوه ، ولكن ظل يتلقى
المعارف في المعرة وفي غيرها من مدن العلم كانطاكية واللاذقية وطرابلس
ثم حلب ؛ فقرأ شيئاً من النحو على محمد بن عبد الله بن سعد النحوي ، وعلى آل كوثر .
ورجع من حلب الى المعرة عام ٣٨٤ هـ (٩٩٤ م) وقد بلغ العشرين ؛ فانصرف الى المطالعة
بنفسه والى التكسب بالشعر ، فنال بذلك الاطائلا . الا انه كره التكسب بعدئذ
وقصر شعره على مراسلة بعض اخوانه الادباء ورتاء بعض اقاربه ، والقول في اغراض
وجدانية بحت . ولم تكن حياة ابي العلاء في المعرة حياة مترفة فقد كان لهوقف يحصل
له منه في العام ثلاثون ديناراً . ويظهر ان امير حلب قد نازعه هذا الوقف فترك المعرة
في اواخر عام ٣٩٨ هـ (١٠٠٧ م) قاصداً بغداد متظاهماً بما نزل به فيما يقال ، مع العلم
بان امير حلب كان خاضعاً فعلياً للفاطميين في مصر ، وكان من الحق ان يتوجه المعري
الى مصر بشكواه لا الى بغداد . واعتضت المعري مصاعب في طريقه اخرته ، فلم
يصل الى بغداد الا بعد ان انقضى ثلاثة اشهر من عام ٣٩٩ هـ ؛ مع ان السفر من المعرة
الى بغداد كان يستغرق عادة شهراً واحداً . ويخبرنا المعري نفسه انه كان يريد الإقامة
الدائمة ببغداد ، اذ يقول في احدي رسائله : « واحلف ما سفرت استكثر الشب ولا

استكثر بلقاء الرجال ولكن آثرت الإقامة بدار العلم فشاهدت انفس مكان لميسف
الزمن باقامة فيه .

ولاريب بان شهرة ابي العلاء سبقته من المعرة الى بغداد فلقي هنالك اكراماً له
واحتفالاً به واعجاباً بفضلته وسعة علمه ، فالتف حوله طلبة يفترون من علمه وادبا.
وفضلاً يحرضون على مجالسته . واخيراً اتفقت له حادثة مع الشريف المرتضى ، اخي
الشريف الرضي نقيب الطالبين ، لقمته عن بغداد مرة واحدة ، وكانت ذا تأثير عميق في
حياته واتجاهه العقلي : « جرى ذكر المتنبى فتنبهت المرتضى وجعل يشتم عيوبه لبعظه
له وتعصبه عليه . وكان ابو العلاء يتعصب للمتنبى ويزعم انه اشعر المحدثين ، فقال
المرتضى : لو لم يكن للمتنبى الا قوله (لك يا منازل في القلوب منازل) لكفاه فضلاً .
فغضب المرتضى وامر بالمعري فاخرج من مجلسه سحياً برجله . ثم قال المرتضى
جلسائه . . . : اتدرون اي شيء اراد الاعمى بذكر هذه القصيدة ، مع ان لابي الطيب
ما هو اجود منها ؟ . . . انه اراد قوله في هذه القصيدة :

و اذا اتتكم مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي باي كامل ! »

يضاف الى هذا فساد الاحوال السياسية والاجتماعية في بغداد ، وورود خبر
مرض امه ، ثم نفاذ ما معه من المال ، وظهور اعداء ، حساد نعصوا عيشه ؛ ففارق بغداد
كرهاً بعد ان قرأ في مكاتبها ما قرأ واحتك برجالها ما احتك ، فاستفاد بعض المعتقدات
والمذاهب الهندية والفارسية عن طريق الافراد او الجماعات كجماعة اخوان الصفا ، او من
المجالس التي كانت تعقد هناك فيحضرها الادباء والعلماء والفقهاء ، على ما تراه مفصلاً
في مظانّه .

وترك المعري بغداد في العشر الاخير من رمضان عام ٤٠٠ (او اخر نيسان ١٠١٠)
عائداً الى المعرة . وفي اثناء عودته فوجىء بنعي والدته فتنجع لموتها واستقر في نفسه
بعدها نفور من الدنيا جديد . ولما وصل الى المعرة وجدها اسوأ حالاً ، وزدم على
معادرتة بغداد مع كل ما ناله فيها :

يا لَهْفَ نَفْسِي عَلَى أُنَى رَجَعْتُ إِلَى هَذَا الْبِلَادِ وَقَدْ فَارَقْتُ بَغْدَادًا .
 إِذَا رَأَيْتَ أُمُورًا لَا تُوَافِقُنِي قُلْتُ : الْإِيَابُ إِلَى الْإِوْطَانِ أَدَى ذَا .
 فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى الْمَعْرَةِ اعْتَرَلَ فِي بَيْتِهِ مِنْذَ عَامِ ٤٠٠ هـ وَانْقَطَعَ إِلَى الدَّرْسِ وَالِى
 التَّدْرِيسِ ، وَانْقَطَعَ عَنِ أَكْلِ الْأَحْمَانِ وَسَائِرِ مَا يُخْرَجُ مِنَ الْحَيَوَانِ كَالدَّلْبَنِ وَالْبَيْضِ وَالْعَسَلِ ؛
 وَسَمَّى نَفْسَهُ ، كَمَا يَذْكَرُ أَكْثَرَ قَدَمَاءِ الْمُؤَرِّخِينَ وَمُحَدِّثِهِمْ رَهْيَنَ الْمُحْسِنِ (الْمَيْتِ وَالْعَمَى) ،
 وَلَكِنَّهُ كَانَ فِي الْحَقِيقَةِ رَهْيَنَ الْمُحَاسِبِ الْثَلَاثَةِ :

أَرَانِي فِي الثَّلَاثَةِ مِنْ سَجُونِي ، فَلَا تَسْأَلُ عَنِ النَّبَأِ النَّبِيثِ ^(١) :

لِقَفْدِي نَازِرِي ، وَلِزُومِ بَيْتِي ، وَكَوْنِ النَّفْسِ فِي الْجَسَدِ الْحَبِيثِ .

وَقَدْ قَضَى الْمَعْرِي النِّصْفَ الثَّانِيَّ مِنْ حَيَاتِهِ بِالْمَعْرَةِ فِي « تَسْبِيحِ اللَّهِ وَتَحْمِيدِهِ » ، كَمَا
 يَقُولُ هُوَ نَفْسَهُ ، وَفِي التَّأْلِيفِ وَالتَّدْرِيسِ . وَفِي سَنَوَاتِهِ الْآخِرَةِ جَرَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَصْرِ بْنِ
 أَبِي عَمْرَانَ دَاعِي الدَّعَاةِ الْفَاطِمِيِّينَ ^(٢) بِمَصْرٍ مَرَّاسَلَةً حَوْلَ امْتِنَاعِ الْمَعْرِي عَنِ أَكْلِ لَحُومِ
 الْحَيَوَانِ وَمَا يُخْرَجُ مِنْهُ . وَلَقَدْ أَرَادَ دَاعِي الدَّعَاةِ مِنَ الْمَعْرِي جَوَابًا صَرِيحًا وَلَكِنْ الْمَعْرِي
 تَعَلَّلَ مَرَّةً بِالْفَقْرِ وَمَرَّةً بِرَحْمَةِ الْحَيَوَانِ وَمَرَّةً بِالاجْتِهَادِ الشَّخْصِيِّ وَمَرَّةً بِاسْتِحْسَانِ عَمَلِ
 الْحُكَمَاءِ الْإِقْدَمِينَ . وَقَدْ حَاسَنَ الْمَعْرِي دَاعِي الدَّعَاةِ كَثِيرًا لِأَنَّ الْفَاطِمِيِّينَ كَانُوا قَدْ
 اسْتَوْلُوا عَلَى الْمَعْرَةِ عَامَ ٤٣٩ هـ .

وَكَانَ الْمَعْرِي قَصِيرَ الْقَامَةِ نَحِيفَ الْجِسْمِ ضَعِيفًا مَشُوهَ الْوَجْهِ بِالْجُدْرِي ؛ وَقَدْ أَعْمَدَ فِي
 أَوَاخِرِ أَيَّامِهِ ثَمَّ مَرَضَ الْمَوْتِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَتَوَفَّى يَوْمَ الْجُمُعَةِ فِي النِّصْفِ الْأَوَّلِ مِنْ رَبِيعِ
 الْأَوَّلِ عَامَ ٤٤٩ هـ (أَوَائِلُ آذَانَ ١٠٥٧) بِالْمَعْرَةِ . وَمَعَ عَظَمِ الْإِحْتِفَالِ بِجِنَازَتِهِ ، إِذْ
 اجْتَمَعَ عَلَى قَبْرِهِ مَائَتَانِ مِنَ الْقُرَاءِ (حَفِظَةَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ) وَرِثَاءُ ثَمَانِيَةٍ وَارْبَعُونَ شَاعِرًا
 فِيمَا قَالُوا ، فَانْ قَبْرَهُ كَانَ مَهْمَلًا مِنْذُ أَوَّلِ أَمْرِهِ ، وَقَدْ رَأَى بَعْضُ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ فِي أَوْقَاتِ
 مُخْتَلَفَاتِ مَهْمَلًا .

وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ أَنَا فِي عَامِ ١٩٣٤ هـ ، وَهُوَ وَمَا حَوْلَهُ خَرَابٌ أَوْ كَلْخَرَابٌ ؛ وَاللَّهِ أَرَدْنَا

(١) الْحَبِيثُ (النَّبِيثُ) : الشَّرِيرُ .

(٢) هُوَ دَاعٍ فَاطِمِيٍّ وَبَلِيسٍ دَاعِيًا دَرَزِيًّا

الدخول الى . مكان الضريح رأيناه مقللاً فانبت الرفاق يسألون عن المرتزق بارشاد الزوار الى قبر حكيم المعرة حتى وجدوه وما كادوا .

واخيراً فكرت الحكومة السورية باعادة قبر المعري فوضعت له تصميماً حديثاً منذ بضعة اعوام ، ولكنها ازال القبر القديم ويا ليتها تركته على ما هو ؛ ثم رفعت البناء الجديد . وعلى كل ، فان البناء الجديد لم يتم بعد .

٢ - عناصر شخصيته وخصائصه الفنية

اثر عماء وضعف جسمه وقلة ماله
قوة عقله وعزة نفسه - زندقته ونقواه
مقدرته اللغوية وسعة اطلاعه وتحكمه

لعناصر الشخصية، في رجل مثل المعري، اثر عظيم في توجيه تفكيره وصيغ آرائه -
وإذا كان العنصر الشخصي يقوى في قوم ويضعف في آخرين، فإنه عند المعري شديد
القوة شديد البروز. لقد اساء الدهر الى المعري بفقد البصر وضعف الجسم وموت
الاهل وقلة المال، بالإضافة الى ما يجب ان يكون غنى رجل مثله. فلم يكن بدءاً ان
نرى في لزومياته قللاً وتشاؤماً ونقمة ومرارة وشكوى احياناً، ولم يكن بدءاً ان
ينصرف المعري عن كل شيء في الحياة الى النقد والتهمك من غير ان يقترح وجهاً من
وجوه الاصلاح الاجتماعي، بل هو على العكس من ذلك قد نفّض يده من كل اصلاح
ممكّن ونسب القصور والضلال الى من يحاول ذلك.

١- اما عماء الباكر فقد حز في نفسه، وان كان هو يتظاهر احياناً بقوله: احمد الله على
العمى كما يحمده غيري على البصر. ولا ارى انا مثل هذا القول من المعري ومن بشار
ابن برد قبله الا من باب التعزّي والتجلّد. وقد يحون شاعرنا احياناً تجلّده فيشير الى
شكوى مريرة في نفسه من هذه العاهة:

* ايسجنني رب العلى وهو منصف
* وكم اشتكت اشفار عين سهدا
ولطالما صابرت ليلا عاتما؛
* اراني في الثلاثة من سجوني
* وما بي طرف للسير ولا السرى
* عمى العين يتاوه عمى الدين والهوى
وعمى المعري هو الذي خاق تشاؤمه.

وان تُقنَ راح فهي لا بد تُبزلُ.
وشفاؤها مما الم شفاؤُ .
فمتى يكون الصبح والاسفار؟
(وقد مر الاستشهاد بها) . . .
لاني ضرير لا تضي لي الطُرقُ
فلياتي القصوى ثلاث ليالٍ .

ب - و كان المعري ضعيف الجسم ضئيله ؛ فاذا اضفت ذلك الى عماء استضعت ان
تعلل زهده في الدنيا واعراضه عن البشر وكرهه المرأة بعض التعليل .

ج - ومع الايقان بان اسرة والد المعري واسرة امه كانتا من الاسر الوجيية
الغنية في المعرفة وفي حلب ، فان المعري نفسه كان فقيراً . ولقد احاب الاستاذ المقدسي^(١)
في التساؤل عن طريقة للتوفيق بين قول اكثر المترجمين المعري بانه كان فقيراً ، وبين قول
بعضهم بانه كان ينفق في سبيل اللائذين والمعوزين . ثم اجاب على ذلك بان المعري
حسنت حاله بعد ان آب الى المعرة وكثر طلابه . ولكن يبدو لنا بوضوح من
اللزوميات انه كان مُعسراً حتى بعد رجوعه من بغداد بامد طويل :

- | | |
|---|-----------------------------|
| • سوأت لي نفسي اموراً وهيها | • ت لقد خاب ذلك التسويل |
| • واتهامي بالمال كآف ان يُط | • لب .ني ما يقتضي التمويل |
| • ويقول الغواة : خولك الـ | • ه ؛ كذبتم ، لغيري التخيول |
| • عيشة ضاهت الهواذير ^(٢) ما في | • ها . مفيد ، بل كلها تطويل |

وكذلك يظهر من الرسائل التي دارت بين المعري وبين داعي الدعاة الفاطميين ان
شاعرنا ظل يشكو هذا الفقر الى ايامه الاخيرة ، ولكنه مع ذلك كان ينفق على
المعوزين والمتعفين . فهنا اراني اميل الى الاعتقاد ان فقره كان نسبياً ، اي بالاضافة
الى امثاله الذين يأخذون انفسهم بالانفاق على غيرهم .

د - ويظهر ان المصائب اُخت على اي العلاء . عموماً وخصوصاً . ان اضطراب
الاحوال السياسية بعد ضعف الدولة الحمدانية عرض شمالي سورية كلها للفزوات حتى
شعرت بذلك المعرة نفسها فكثرت الفتن وعم الفرع . ومن المصائب التي خصت
المعري موت امه .

ه - ومع وهاجة المعري فقد لقي اساءات مختلفة في المعرة وفي بغداد ، تعرض لها
بسبب عاهته ، فقد دخل مجلس الشريف المرتضى ببغداد فعثر برجل فقال ذلك الرجل :

(١) امرأ الشعر (١٩٣٦) ص ٣٣٢ .

(٢) كذا بالاصل - والقرينة تدل على ان الشاعر يقصد شيئاً كثيراً كقيل الجدوى .

من هذا الكلاب ؟ ثم اراد المعري حضور مجلس العالم النحوي ابي الحسن الربيعي ، فلما استأذن في الدخول قال ابو الحسن ؟ ليدخل الاصلطيل (الاصلطيل الاعمى بلمهجة اهل الشام !) . ثم ان ارتفاع مكانة المعري خلقت له حساداً وخصوصاً اتهموه بالزندقة مرة وبالاحاد اخرى . ولا ريب في ان شدة انتقاده الحكام ورجال الدين والناس عامة عملت على خلق كره جديد له ، وان لم يستطع احد ان يناله صراحة بأذى .
فاذا كانت هذه العناصر السلبية هي التي وجهت حكمة ابي العلاء الى مستقرها فعلياً الا نهمل العناصر الايجابية التي ساعدت هذه الحكمة على البروز :

١ . ذاكرته الجبارة - ليس في تاريخ العرب ، ولا علمت في تاريخ غير العرب ، من كان مثل المعري في الذكاء حتى انهم رووا عنه اعاجيب يدخل بعضها في باب الخرافات . على ان المهم عندنا انه استطاع بهذه الذاكرة الجبارة ان يستوعب القسم الاوفر من المعجم العربي فيصرفه في اسجاعه وقوافيه خاصة ، وفي رسائله واشعاره تصريف واعٍ لبق ، ثم استطاع ان يستوعب كثيراً من الاخبار والاشعار والمعارف فينثرها في كتاباته او يبني عليها آراءه ، او يربط ما بينها في مناسبات مختلفة .

ب . قوة التحليل العقلي عنده - لم تكن ذاكرة المعري واعية فحسب ، بل كانت نقادة ايضاً . لقد استطاعت ان توازن بين ما استوعبته ، وان تقارن بعضه ببعض ، وان ترى موضع القوة والضعف حتى في ما لقنه ابواه واساتيده زمانا طويلاً ، او في ما مر معه مرأ عارضا ، او في ما تخيله لنفسه .

ج . جرأته - وكان جرئاً في اعلان آرائه في اللزوميات على الاخص الى درجة الاهانة لبعض الناس والتهمك على بعض المعتقدات ؛ على انه كان في كل ذلك جاداً لا هازلاً . ومع كل هذا فقد مال الى « التقية النكرية » وكم آراء فلم يبدها كلها .

د . انفته - وكان المعري انوفا عزيز النفس صلب الارادة ، لم يحتمل ملاحظة تمس به ولا قبل عطية من احد (سوى ما نال على قصائده الاولى) ، ولا لان في ما اعتقد انه الحق كاتباع العقل وابطاء الخضوع لما يرضع الناس له عادة من طريق الدين او المجتمع او الدولة .

٥ . علومه - كانت علوم المعري الاولى ، التي تلقاها من ابيه واساتذته الى ان بلغ العشرين ، كلها في اللغة والادب والفقه . ثم درس على نفسه ما لم يقرأه على اساتذته ، من ذلك ما عرفه عصره من المذاهب الاسلامية وغير الاسلامية ، ومن علم الكلام ، ومن العلوم العقلية التي نقلت حتى عهده الى اللغة العربية ، ولا تلتفت الى ما زعموا من انه تعلم بعض ذلك على راهب مسيحي في اللاذقية فانه خرافة ^(١) . ويظهر ان اعجابه بالفلسفة الهندية كان عظيماً ، على ما سيمر بك . ولا شك في انه تأثر بالفلسفة الصينية ايضاً .

و . هل كان المعري زنديقاً ام تقياً ؟ - غلط الناس على المعري فظنوه زنديقاً . ولكن الواقع انه كان تقياً . ان احسن تعريف للزندقة انها « استهزاء المرء بالفروض الدينية والتساؤل عن حكمتها والتزيّن بتركها » . والحق ان المعري قد هاجم « الفروض الشكلية » في الاديان كلها وفي الاسلام ايضاً مهاجمة عنيفة . فاذا قبلنا ذلك وجب ان نسمه بسمه غير الزندقة ، او بسمه اشد من الزندقة . من اجل ذلك ظنه بعضهم كافراً او ملحداً ، وقد اخطأوا ايضاً .

واذا كان بسط آراء المعري في « الايمان وفي الدين » يجب ان يأتي في موضعه من هذا الكتاب ، فيجب علينا هنا ان ننظر في « تقواه » ، ثم ننظر الى اي حد كان هو يقوم شخصياً بفروض دينه . لا نشك ابداً في ان المعري كان ذا خشوع ديني :

* رددت الى مليك الناس امري ؛ فلم اسأل : متى يقع الكسوف ؟

فكم سليم الجهول من المنايا وعوجل بالحمام الفيلسوف !

* فان سألوا عن مذهبي فهو خشية من الله ، لا طَوْراً ابث ولا جبراً .

* رب اكفني حسرة الندامة في الـ . عقيب فاني محالف الدم .

و كان المعري يقيم الصلاة بلا ريب ولكن لوحظ عليه انه لا يحضر صلاة الجمعة ، وهو على حق في ذلك لان الغاية من صلاة الجمعة اجتماعية ، واذا كان الانسان اعمى كالمعري فان حضور الصلاة في المسجد الجامع مشقة عليه وازعاج للآخرين مما لا يريد به الدين الصحيح :

- * الحمد لله قد أصبحت في دعة
وشاهد خالقي ان الصلاة له
* يقولون : هلا تشهد الجمع التي
وهل لي خير في الحضور ، وانما
- ارضى القليل ولا اهتم بالقوت .
اجل عندي من دري وياقوتي !
رجونا بها عفواً من الله او قربا .
ازاحم من اخيارهم اربلا جربا .

و كذلك كان يصوم رمضان فيما اعتقد ، لانه كان يقضي كثيراً من الايام صائماً او شبه صائم ، فالصوم جزء اساسي في زهد المعري :

اعيش بافطار وصوم وبقظة ونوم ، فلا صوماً حمِدت ولا فِطراً!
وكما انه لم يكن يحضر صلاة الجمعة ولا صلاة الجماعة فانه ايضاً لم يحج ، والحج ايضاً « موسم اجتماعي » ، وهو فوق ذلك « فرض على المستطيع » فقط ، والمعري كان عاجزاً عن ذلك من حيث المقدرة الجسدية والمالية فيما اعتقد :

- * انا للضرورة في الحياة مقارن ، ما زلت اصبح في البحار الموح .
وصرورة في شيمتين لانني مذكنت : لم أحجج ولم اتزوج !
* ولم اقض فرضاً في منى وبلادها ، ولم عاجز قد زارها متنقلاً !
ويتبع الصلاة جماعة والحج ان المعري لم يكن ذا مال يبلغ « نصاباً » تؤدي عليه الزكاة : ولكنه كان بلا ريب يتصدق .

اما المعاصي فنحن على ثقة من ان المعري لم يأت شيئاً منها ، فهو لم يشرب الخمر ، ولم يقرب النساء . حلا حتى نتوهم انه قربهن حراماً . وكذلك كان زاهداً في كل امر من امور الدنيا ، ولم يضّر احداً في حياته بل . كان يحتمل الضرر الكثير ، وكان مع ذلك يحسن الى الناس من ذات يده وذات نفسه . اما الشواهد على ذلك كله من لزومياته فكثيرة جداً .

وهكذا نرى ان المعري كان تقياً ، لا ريب في ذلك .

خصائصه العامة خصائص المعري العامة متعددة لاتساع ثقافته وعظيم ذكائه وعلمه ؛ من ذلك :

١ . مقدرته اللغوية - وهي تظهر في كثرة المفردات التي يستعملها وفي الغريب

من الالفاظ والنادر من الصيغ ، وتظهر في الالفاظ الفنية التي يضعها موقعها في شعره
كاسماء الحيوان والنبات والاسماء الفلكية ؛ ثم في الالفاظ الجغرافية التاريخية كاسماء
الاماكن والبقاع والقبائل وكالكثبي واسماء الاشخاص ، ثم بعض الالفاظ الاعجمية ،
عامةً كانت ام غير علم :

- * كيف الرباح ، وقد تألى ربنا
- * تروم رزقاً بان سهوك متكللاً
- وبالعصر ان المرء حلف خسار !
- وأدينُ الناس من يسعى ويحترف .
- يكفيك أدماً بنحض ماء نابثة
- * المليك المذكرات عبيد
- وظلمك النجل ما يعطيه الضرف .
- وكذاك المؤنثات اماء ؛
- فالهلال المنيف والبدر والفر
- قد والصبح والثرى والماء
- والثريا والشمس والنار والنثورة والارض والضحي والسما .

٢٠٢ تصرفه في فنون البلاغة - والمعري متكلف في الصناعة اللفظية من الجناس
والطباق والتورية والتسجيع (في نثه) ومتكلف في غرامه بالصناعة المعنوية ، ولا حاجة
الى ذكر لزومه في قوافيه ما لا يازم :

- * اسطرلاب حوله من جهول فهو يرجو هدياً باسطرلاب .
- * الحظ يقسمُ عاش بشراً ما اشتكى نظراً وعمر اكها بشار .
- وهي الحوادث عوذ ولواقح
- وشوائسل وحوائل وعشار .
- كم شرن من أري يكون مقيله
- ثغراً يُشار له وليس يُشار^(١) .

٣٠٣ مقدرته الفنية - والمعري متين التركيب لانه لغوي اديب عالم ؛ على ان
تكلفه احياناً يضعف تركيبه ويجعل فيها نوعاً من الغموض ، فان الاديب اذا انصرف
الى تكلف اللفظ غط المعاني بعض حقوقها .

٤٠٤ سعة اطلاع - واللزوميات في الحقيقة دائرة معارف موجزة في النحو

(١) الاربي : العسل ، بشار : يقطف (للعسل خاصة) .

والادب والتاريخ وايام العرب واخبار الاقدمين وفي القرآن والحديث والفقہ وسائر علوم العربية ، وفي كثير من علم الطبيعة والفلسفة . ولا ريب في ان المعري احاط بكل ذلك وفهمه على الوجه الذي كان شائعاً يومذاك ، وقد استعرضه استعراضاً حسناً ونقده نقداً عاقلاً . ولا حاجة الى الاستشهاد على ذلك كله ، لان ذلك يعني بسط جميع آرائه . وموضع ذلك غير هذا الموضع .

٥ . الترسيم والفقر - والمعري قدير في التكهيم والنقد مما يجعله اقرب الى الادباء منه الى الفلاسفة . ويكاد يكون هذا التكهيم شائعاً في اكثر لروميائه . واكثر تهكم المعري على العادات السائدة والعقائد الموروثة وعلى رجال السياسة والادارة ؛ ولم ينج منه واضعو الشرائع :

* يدٌ بجمسٍ مميء من عسجدٍ فُديت ؛ ما بألها قُطعت في ربع دينار (١) ؟
 تناقضٌ ما لنا الا السكوت له ، وان نعوذ ببولانا من النار !
 * قضى الله ان الآدمي مُعذَّبٌ الى ان يقول العالمون به : قضى .
 فمَنى . ولاة الميت يوم وفاته ، اصابوا نُرانا واستراح الذي مضى !
 * قالوا : لنا خالق قديم ؛ قلنا : صدقتم ، كذا نقول .
 زعمتموه بلا مكان ولا زمان ، الا فقولوا .
 هذا كلام له خبيء . معناه ليست لنا عقول .
 * يارب اخرجني الى دار الرضى عجلا فهذا عالم منكوس .
 يبعون باخسیر الرياح ، وبالاذى حُسن الثوب ؛ فكلهم موكوس .
 وارى ملوكا لا تحوط رعية ، فعلام تُؤخذ جزية ومكوس ؟
 * قالوا فلان جيد لصديقه ، لا يكذبوا ؛ ما في البرية جيد !
 فاهيرهم نال الامارة باخنا ، وتقيمهم بصلاته متصيد .
 كن من تشاء : مهجنا او خالصا ؛ فاذا رزقت غنى فانت السيد .

(١) يشير الى ان المسلم اذا اعتمد عليه بقطع يده اوجب الشرع ديتها خمسمائة دينار ، فاذا سرق ما قيمته ربع دينار قطع الشارع يده .

على ان هذا التهكم ليس من الهزل والتعريض بل من الاصابة في المقارنة بين الصحيح وغير الصحيح وبين المعقول وغير المعقول . وتهكمه لا يبعث على الضحك بل على التفكير : انه الحقيقة المرة نفسها مسوقة في قالب شعري . ولا ريب في ان فهم تهكمه يحتاج الى ثقافة واطلاع حتى تدرك موضع النكتة منه : زيادة الجيم عنّت جيم حاملة الى التراب ، وزادت حافراً تعبا! ^(١)

واما مقدرته في النقد فهي ادخل في باب الفلسفة من التهكم ، يتناول بها كثيراً من اوهام المتفلسفين وخلافات المتكلمين فيمر بها على محك العقل او يقيسها بالواقع او يعارضها بماثلها واشباهها او بما ثبت بالاختبار ودعت اليه الحاجة . والفرق بين التهكم والنقد هو ان التهكم عادة يسوده الهزل والاستخفاف بينما النقد يسوده الجِد وحُب الوصول الى الحقيقة . على ان النقد عند المعري يحاطه شيء من التهكم ايضاً ، ويرد في البيت بعد البيت :

- | | |
|-----------------------------------|---|
| * آله قادر وعبيد سوء | * وجبر في المذاهب واعتزال . |
| * ان كان من فعل الكبائر مجبراً | * فعقابه ظلم على ما يفعل . |
| * يقولون : ان الدهر قد حان موته | * ولم يبق في الايام غير ذمّا . ^(١) |
| * فقد كذبوا ما يعرفون انتضاءه | * فلا تسمعوا من كاذب الزعماء . |
| * يا آل اسرال ، هل يرجى مسيحكم ؟ | * هيات ، قد ميز الاشياء من خلبا . |
| * قلنا : اتانا ولم يصب ؛ وقولكم : | * ما جاء بعد ؛ وقالت امة صلبا . |
| * يقولون : صنع من كواكب سبعة | * وما هو الا . من زعيم الكواكب . ^(٢) |
| * هذا الفتى اوقع من صخرة | * ييهت من ناظره حيث كان . |
| * ويدعي الاخلاص في دينه | * وهو عن الاحاد في القول كان ^(٣) |
| * يزعم ان العشر ما تصفها | * خمس ؛ وان الجسم لا في مكان ! |

(١) يعني ان صاحب الجسم الضخم يتعب الذين يحملونه الى قبره ويتعب الذي يحفر له القبر .

(٢) بقية الروح في الجسد (٣) الله . (٤) كان اسم فاعل من كني يكني كناية .

٣ - مقامه في تاريخ الفلسفة

احكيم ام فيلسوف ؟ اسلي ام ايجابي ؟ مصادر فلسفته

سنسعي ابا العلاء المعري فيلسوفاً على التوسع كما نسمي السفسطائيين كالمهم وسقراط نفسه فلاسفة ، وكما نسمي كثيرين من رجال العصور الوسطى في الغرب فلاسفة . واذا كان من الظلم ان نعد المعري فيلسوفاً في صف افلاطون وارسطو وابن رشد و كنت ، فان من العدل ان نجعله مع سقراط والقديس اغسطينوس والغزالي وتوما الاكوييني وشوبنهاور طبقة واحدة ، والا نجعله في اسفل تلك الطبقة ايضا . واذا علمنا ان تنظيم الفلسفة لم يبدأ الا في كتب افلاطون ، وان عبقرية سقراط انما كانت في نقد حالة ائتنا وايفاظ شبانها لرؤية مساوي . مجتمعيهم من غير ان يبدي هو رأيه صراحة ، وان كثيراً من كتب الفلسفة اليونانية الاولى كانت شعراً ، حق لنا ان نسمي « لزوميات المعري » كتاب فلسفة .

وبعد ، فما مقام المعري في تاريخ الفلسفة ؟

- ١ - نقد المعري الفلسفة الاسلامية التي وصلت الى ايامه ونبه الافكار الى ما فيها من آراء صحيحة او غير صحيحة ؛ ومع ان المعري بنى نقده على التهكم كثيراً وعلى التحليل الشامل قليلاً ، فان جرأته وحرية كانتا عظيمتين ، اذ حكم العقل في كل شي . تحكيميا فاصلا صحيحا حتى في الامور التي ظن بعضهم انها لا تخضع للعقل . من اجل ذلك ارتفع المعري فوق القديس اغسطينوس وتوما الاكوييني درجات .
- ٢ - كان المعري طبيياً اجتماعياً عرف ادواء المجتمع وحللها ووصف بعض علاجها ، واكدته لم يكن صيدلانياً يستطيع تركيب العلاج .
- ٣ - وكان المعري واقعياً في تفكيره لا يميل الى الخيال ولا يأخذ بالظن بل يجاربهما حتى لا يجوز ان نعد تفكيره تفكيراً مادياً .

٤ - واقد ظلم المعري قوم^١ ، فزعموا ان آراءه سلبية ، قالوا انه انتقد بعض العادات واكثه لم يحاول اصلاحها ، وانه شك في ما قيله الناس في بعض الامور واكثه لم يقترح اوجه الصواب في ذلك .

اجل انه فعل مثل هذا ، واكثه فعل غيره ايضاً : لقد كان يجابياً في امر معين ، وكان لا ادريا في امور غيرها ، وكان متشاكماً فيما يتعلق بالطبيعة البشرية والاصلاح الاجتماعى .

(ا) لقد ابدى المعري في المرأة رأياً يجابياً صريحاً - وان كان رأياً ظالماً .

(ب) وكذلك كان رأيه في الاخلاق الجابياً مثاليا واضحا .

(ج) وكان رأيه عملياً في الدين ، فهو يفضل العمل الصالح والاعتقاد الصحيح وحسن المعاملة على العبادات الشكلية والخرافات المزينة والمنازعات الفقهية .

(د) وكان رأيه في « الحياة » صريحاً لا تردد فيه فهو يدعو الى ترك الزواج وترك

النسل وترك ابداء الحيوان والى التششف - وذلك راجع بلا شك الى تشاؤمه .

(هـ) ولما نظر المعري في البشر واستقرى وقئع التاريخ ، اتخذ رأياً واقعياً وحكم على الطبيعة البشرية بالفساد ونفض يده من اصلاح البشر بعد ان رأى ان جميع الانبياء والفلاسفة من المصلحين لم يستطيعوا هذا الاصلاح .

(ح) والمعري يدعو الى اتباع « العقل » في كل امر ويجعله وحده الدليل الهادي ،

وكل ما عداه ضاللاً .

(ط) اما في الماورائيات (الامور التي تتعلق بما وراء الطبيعة) فقد نفى المعري كفه من الوصول الى حقيقتها ، وانكر ان يصل غيره الى حقيقتها ايضاً . ثم انه استعرض آراء الفلاسفة في الماورائيات وبين التناقض الذي خبطوا فيه هم انفسهم عند الكلام عليها . من اجل ذلك لا يحق لنا ان نتهم المعري « بالجهل » اذا اعلن انه « لا يدري » حقائق هذه الامور التي لا سبيل الى الوقوف على حقائقها ! ان مثل هذا الموقف قديم معروف في تاريخ الفلسفة ، قال الفيلسوف السفسطائي بروتاغوراس (ت ٤١١ ق ٥٠ م) :
« اما فيما يتعلق بالآلهة ، فلا يمكنني ان اعرف اذا كانت موجودة او غير موجودة . اذ انثمت

اموراً كثيرة تحول دون هذه المعرفة ، اهمها غموض هذا المطلب وقصر حياة الانسان .
ثم جاء بعد المعري ايضاً نفر اعلنوا استحالة معرفة حقائق الامور الماورائية ، حسبك ان
تعرف منهم ابن رشد و كنت ، وان تطلع على مذاهب اللادريين والطبيين والمرجئة
العقليين من القدماء . والمحدثين حتي تعلم ان امتناع المعري عن اصدار حكم في قضايا ما
وراء الطبيعة ، سلباً او ايجاباً ، انا هو فلسفة صحيحة ورأي صحيح .

وما دامت فلسفة المعري في اكثرها ، انا هي استعراض وتقد وتحليل ، فليس من
المنتظر ان تجد في مادتها ابتكاراً ظاهراً ؛ ولكنك واجد على كل حال في اسلوبها
ابتكاراً عظيماً . ان الطريقة التي عالج بها المعري تلك القضايا القديمة المعروفة ، في هذا
الثوب الشعري اللهاج وبهذا النفاذ من البصيرة النيرة ، وبذلك التهكم المر اللاذع المضاف
اليها ، هو الذي خلق عبقرية المعري واحلته مكاناً رفيعاً بين جبابرة التفكير ، ومكاناً
متواضعاً في تاريخ الفلسفة .

و اذا حاولنا ان نجد مصادر هذه الفلسفة فيجب ان نحاول البحث عنها في :

- ١ . شخصية المعري (راجع الكلام على عناصر شخصيته) .
- ب . بيئة المعري (راجع الكلام على عصره) .
- ج . التاريخ العربي والادب العربي اللذين استمد منهما حكيماً اداة واسلوباً .
- د . الاسلام ، وهو الاساس الذي قام عليه تفلسف المعري .
- هـ . المذاهب الكلامية الشائعة كالاشعرية والمعتزلة والجبورية ؛ ثم المذاهب الفقهية
في الاسلام .

و . الديانات المختلفة كاليودية والنصرانية والمجوسية ودين الصائبة (عبدة النجوم)
ز . المذاهب الفلسفية الكبرى في الفلسفة اليونانية ، وخصوصاً الفلسفة الطبيعية
(فلسفة تاليس واتباعه) . وفلسفة السفسطائيين ، وفلسفة المشائين ، ثم الفلسفة
الافلاطونية الحديثة - وهذه امور عرفها من المطالعة ومن الجدال الشائع في سورية
يومذاك ؛ وعرفها على ما كانت شائعة عليه .

ح . مذاهب التفكير الشرقية السني هي في الحقيقة مزيج من التفلسف والتدين .

كالبوذية والكنيوية والصيامية والتناسخية مع شيء من التفلسف الصيني - وهذه أمور يُظن انه احتك بها او بالدعاة اليها حينما كان في بغداد (٣٩٨-٤٠٠ هـ) .

ط . المذاهب الباطنية ، منها ما عرفه في بغداد كذهب جماعات تشبه جماعة اخوان الصفا ، وكذهب جماعة اخوان الصفا ايضاً كما قيل ؛ ومنها ما عرفه بعد رجوعه الى المعرة (٤٠٠ هـ) كالمذهب الفاطمي الذي تفرع عنه المذهب الدرزي ، ثم مذهب الحشاشين ، ومذهب محمد بن نصير العلوي الذي يعرف اتباعه باسم « النصيرية » - ولقد كانت هذه المذاهب يومذاك كثير الشيوع بادية الاثر في المجتمع . وكان تأثره بالمذهب الدرزي خاصة شديداً يقتضي ان نفرده له فصلاً في باب بسط فلسفته .

هذا المزيج المؤتلف المختلف تفرق على قلة او كثرة في ديوان المعري « سقط الزند » ، وفي رسالة الغفران ، وفي اللزوميات خاصة .

٤ _ _ موجز فلسفته وخصائصها

محاولة ترتيب اللزوميات ترتيباً تاريخياً
اتجاه المعري في لزومياته : تقيته ، لا ادريته ،
الشك الفلسفي والتساؤم ، اتباع العقل والتفكير المادي .

لم يبتدع المعري مذهباً فلسفياً ولا احسبه قصد ذلك ، ولا نستطيع ايضاً ان نقول
انه اخذ مذهباً فلسفياً برمته او اعتمق مذهباً دينياً بعينه مرة واحدة ، وانما كان يعجبه
الرأي بعد الرأي في مذهب مذهب فيستحسنه ويحك به الآراء التي تحالفه في المذاهب
الاخرى من غير ان يعمل به او ان يدعو اليه . ولقد فوجيء كثير من الدارسين من
هذا الباب ، يعرض لهم الرأي في لزوميات المعري فيحاولون ان ينسقه في « نظام آرائه »
فلا يستطيعون ، فيزعمون ان المعري متردد متحير متشكك .

ترتيب اللزوميات وقبل ان نستعرض آراء المعري الاصيله ، وقبل ان نبين
مرتبها في تاريخ الفلسفة ، او باضافة بعضها الى بعض على الاقل ، وقبل ان نستخرج حكماً ما
منها ، يجب ان نعرف كيف رتب المعري لزومياته ؟ هل نظمها على الترتيب الذي نراه
مطبوعاً في نسخ اللزوميات ؟ ام انه كان ينظم ما اتفق له على غير ترتيب ثم يعود فيضع
كل لزومية في موضعها من حروف الروي (١) ؟

يذكر المعري في اول مقدمة اللزوميات ما يلي :

« كان من سوانف الاقضية اني انشأت ابنية اوراق توخيت فيها صدق الكلمة
ونزهتها عن الكذب . . . ؛ فمنها ما هو تمجيد لله الذي شرف عن التمجيد ووضع
المن في كل جيد ؛ وبعضها تذكير للناسين ، وتنبيه للرقدة العافلين ، وتحذير من
الدنيا . . . وانما وصفت اشياء من العظمة ، وافانين على حسب ما تسمح به الغريزة .
فان جاوزت المشترط الى سواه فان الذي جاوزت اليه قول عري من المين .

(١) الحرف الذي تبنى عليه الغافية كاللام مثلاً في : . . . ومبرل ، . . . تحملوا . . . الخ

وجعت ذلك كله في كتاب سميته لزوم ما لا يلزم »
ثم يجتُم هذه المقدمة نفسها بقوله :

« وهذا حين ابدأ بترتيب هذا النظم وهو مائة وثلاثة عشر فصلاً ، لكل حرف اربعة فصول ، وهي حسب حالات الروي من ضم وفتح وكسر وسكون ؛ واما الالف وحدها فلا تكون الا ساكنة . وربما جئت في الفصل بالقطعة الواحدة او القطعتين ليكون قضاء حق للتأليف » .

فيظهر مما تقدم بوضوح ان المعري قبل ان « يبدأ بترتيب اللزوميات » كان قد نظمها كلها ؛ ويظهر ايضاً انها لم تكن مرتبة تماماً على ما هي عليه في الطبقات الموجودة بين ايدينا . وعندني ان المعري كان ينظم اللزوميات « مجموعاً بمجموعاً » ، اعني انه كان يتناول حرفاً من حروف الروي : الهمزة او الباء او الراء او الميم وينظم عليه من اللزوميات ما قد يتفق له . ومن القرائن على ذلك انك ترى « نفساً » واحداً يسود اكثر « اللزوميات المتتالية » ، وان هذه اللزوميات المتتالية تبحث في فكرة واحدة او فكرات متقاربة ؛ وكثيراً ما خضع مثل هذا المجموع من اللزوميات لمفردات وتراكيب تتملك المعري فيكررها عند كل مناسبة . راجع باب التاء مثلاً فتجده يكرر لفظ « السبت » ومشتقاته ؛ ويكثر من ذكر الايام المقدسة عند المسلمين والنصارى واليهود (الاحد والسبت خاصة) :

* وكفرها ليلٌ ترهبُ شبيهه	تُخالُ يهوداً عاق عن سيرها السبتُ
يعيش اناس لا يَسُّ جسومهم	شفوفٌ ولا يُحذى لاقدامهم سبتُ
* ثلاثة ايام لاهل تنافر	ولكن قول المسلمين هو السبت :
يرى الاحد النصري عيداً لاهله	وجمعنا عيد لنا والكَ السبت .
* اينحلُّ سبت يعقد الخط يومه	فينجح ساع ام هو الدهرُ سابت ؟
* فقد اخبرت عن غيرها سنواتها	كما اخبرت آحادها وسبوتها .
* اجلت سبتها اشياع موسى	اسبت القطع ذاك ام السبات ؟
* اذا كانت الاحبار تُعظم سبتها	فاخو البصيرة كلَّ يوم مُسبت

* فيا للنصارى اذا امسكوا ويا لليهود اذا اسبتوا .
* وما حكين النصارى في لباسهم ولابعين كاهل السبت اسباتا
وربما اعاد المعاني والتراكيب في اللزوميات المتتالية واعاد القوافي احياناً
فقد قال :

أصمتَ الشهورَ فهلاً صمتَ ولا صومَ حتى تطيلَ الصموتا .
يلاقى الفتي عيشه بالضلال ويبقى عليه الى ان يموتا .
ثم قال بعدها مباشرة :

اخو الراح ان قال قولاً وجد ت احسن مما يقولُ الصموتا .
ويشرب منها الى ان يقى . ولا غرو ان قلت ، حتى يموتا .

وبعدئذ تلاحظ ايضاً ان « النفس » الشعري واحد فتميل الى القول بان هذه اللزوميات المتتالية في النسخ التي بايدينا يجب ان تكون قد نظمت في وقت واحد او في اوقات متقاربة ؛ ويستبعد ان يكون قد فصل بينها بلزوميات آخر كثار ، او بزمن طويل .

*

على ان المعري بلاشك لم يبدأ بحرف الهمزة ثم استمر حتى وصل الى حرف الياء ؛ بل كان - فيما ارى - ينظم من هنا ومن هناك ، وقد ينظم مجموعاً من اللزوميات على « الراء » ثم ينظم مجموعاً آخر على العين ، ثم يعود الى الراء او الى غيرها . الا انه كان في كل مرة ينظم مجموعات كباراً دفعة واحدة ، وربما شذ عن ذلك احياناً فنظم لزومية واحدة او اثنتين .

اما القرائن على ذلك فكثيرة : اولها الاشارات التاريخية وسأخذ منها واحدة مشهورة هي « قصة صالح بن مرداس صاحب حلب واستنقاذ المعرة من غضبه » . وذلك ان فتاة عذراء من اهل المعرة مرت بجانة هنالك فتعرض لها بعض اهل الحانة بالقوة وغلبوها على امرها ؛ ف جاءت يوم الجمعة الى المسجد الجامع بالمعرة وقصت على المصلين امرها فثاروا الى الحانة فهدموها . وفي ذلك يقول المعري :

انت جامع^(١) يوم العروبة جامعا
تقص على الشُّهَاد بالمصر امرها
فلو لم يقوموا ناصرين لصوتها
خَلَّتْ سماء الله تمطر جمرها
فهدوا ببناء كان يأوي فناءه
فواجزُ القت للفواحش خمرها
الفنا بلاد الشام الف ولادة
نلاقي بها سود الخطوب وحمرها
فاني أرى الآفاق دانت لنظام
يغرّ بفاياها ويشرب خمرها
وما العيش الالجة باطلية
ومن بلغ الحسين جاوز غمرها

ولقد اتفقت هذه الحادثة عام ٤١٨ هـ (١٠٢٧ م) وعمر المعري يومذاك خمس وخمسون سنة .

وكان لصالح بن مرداس وزير رومي اسمه ثيودور كان يتهم اهل المعرة بانهم قتلوا حماه (والد امرأته) . فلما هدم المعريون بيت الفجور في بلدتهم سي . ثيودور وتذكر تأره القديم فانار صالحاً على اهل المعرة . واطمأنت اذن صالح لكلمات ثيودور ففرض على المعرة جزية باهظة ثم اناخ حولها بجيش لجب يريد هدمها . فجاء اهل المعرة الى شاعرهم ابي العلاء وبعثوه شفيعاً الى صالح فاكرم صالح مشواه وعف عن هدم المعرة ولكن لم يُعف اهلها من الغرامة ، على الاغلب . ولقد اثارت الحادثنان معاً نقمة المعري على صالح هذا فذكره في بضع لزوميات معرّضا او مشتهراً :

- * بُعِثت شفيعاً الى صالح
- * ما لمت في افعاله صالحا
- * ارى حلبا حازها صالح
- * أصالح ، هل أصالح او اعادي
- * تجبى المعاشر من برائن صالح
- * وذلك من القوم رأى فسداً
- * بل خلته احسن مني ضمير
- * وجمال سنان على جليقا
- * هو بالي موثق بعظام بال
- * رب يفرج كل امر معضل

والمنتظر ان يكون المعري قد نظم اللزوميات التي منها هذه الابيات في وقت واحد او في اوقات متقاربة ؛ ولا ريب في انه قال اللزومية التي منها

(١) جامع من اسماء البنات ، ولكن اغلب الظن ان المعري يقصد بها « المرأة الحامل للمرة الاولى » .

البيت الاخير مباشرة بعد اللزومية التي منها البيت الاول ، للصلة التي بينهما ، مع ان بينهما في النسخة التي بين يدي (المكتبة التجارية - مصر - ١٣٤٣ هـ ، ١٩٢٤ م) نحو اربعمائة صفحة تشتمل على نحو خمسة آلاف واربعمائة بيت او تزيد . من اجل ذلك ارى ان المعري نظم هذه اللزوميات ثم فرقها في اماكنها من احرف الزوي ، عام ٤١٨ ، او بعده بقليل وعمره يومذاك على ما مر بنا خمسة وخمسون عاماً .

وهناك قرينة ثانية قيحة في ترتيب اللزوميات . يظهر ان المعري كان يتأمل الحياة ثم يقارن ادوارها ولذاتها . وتكاليها بادوار حياة الانسان عموماً . وكثيراً ما كان يذكر عمره هو في هذه المناسبة ، وليس من المنتظر ان يقول انه بلغ الخمسين وهو شاب او وهو شيخ متهدم . فلنأخذ الابيات التي يذكر المعري فيها سنه بصراحة :

- | | |
|-------------------------------|--------------------------------|
| * حياتي بعد الاربعين منيّة ، | ووجدان حلف الاربعين فعود . |
| فمالي وقد ادركت خمسة اعقد | ابيني وبين الحادثات عقود ؟ |
| * اذا كنت قد جاوزت خمسين حجة | ولم الق خيراً فالمنية لي ستر . |
| * ورميت اعماري ورأيي مثلها | رمت المطي مهامه السفار |
| وركبت منها اربعين مطية | لم تحل من عذت وسوء زفار |
| * لعمرى لقد جاوزت خمسين حجة | وحسي عشر في الشدائد او خمس |
| * احمسين قد افنيتها ليس ناعبي | بتأخير يوم ان اعض على خمس |
| * خمسون قد عشتها فلا تعش | والنعش لفظ من قولك انتعش |
| * شربت سني الاربعين تجرعلي | فيا مقرأ ما شربه في ناجع . |
| * علقت بجبل العمر خمسين حجة | فقد رث حقى كاد ينقطع الجبل . |

هذه الابيات التي مرت بك قد اثبتتها على الترتيب الذي وردت عليه في اللزوميات التي بين ايدينا ؛ وكما تتضمن عمر المعري يوم قالها لا شك في ذلك . ثم انك ترى (الاربعين) في خلال ابيات ذكرت فيها « الخمسون » ، مما يدل صراحة على ان البيت « شربت سني الاربعين » نظم قبل البيت (فمالي وقد ادركت خمسين حجة) ولكنه

تأخر عنه في الترتيب لانه على روي العين ؛ اما البيت الثاني فقد تقدم لانه على روي الدال . فمن هنا ايضاً نعلم ان المعري كان ينظم اللزوميات على غير ترتيب مخصوص ثم يضعها في اماكنها من احرف الروي .

ثم هنالك قرينة ثالثة شبيهة بالقرينة الثانية : قد يشير المعري الى تقدم سنه مرة بعد مرة من غير ان يذكر عدد السنوات صراحة ، بل يذكر . مثلاً صباحه وكهولته وشيبه وقرب انتهاء حياته . من ذلك كله قوله :

- * وذلك ان سواد الرأس غيرَه في غرة من بياض الشيب اضواء .
- * اصاب جحرري قُر فانبتت له والنار تُدْفىء ضيني حين ادفئها .
- * طال الثواء ، وقد أنى لمفاصلي ان تستبد بضمها صحراؤها .
- * خِلاني يا أخي استغفر الا ه فلم يبق في الا الدماء .
- * فقد عشت حتى ملني وملته زماني وناجتي عيون التجارب .
- * اذهب فيكم ايام شيبى كما اذهبت ايام الشباب .

هذه ابيات مأخوذة من حرف الالف وحرف الباء في اللزوميات ، اي من اول الكتاب ، وتراه فيها يذكر كثرة شيبه ويذكر مله من الحياة ويقول : « فلم يبق في الا الدماء » ، او يقول : « ملني وملته زماني » ، مما يدل بلا ريب على انه نظم هذه الابيات وهو متقدم في السن ، ومع ذلك فهي تقع في رأس اللزوميات .

ثم اننا اذا قلبنا في اللزوميات وصلنا الى مثل قوله :

- * تحذ العراب على المفارق موقعاً ولقد علمت بانه سيطار .
- * تأخر الشيب عني مثل مقدمه على سواي ، ووقت الشيب ما حضرا .
- * وما اصيح بغير بان الشباب : قعي ؛ ولا اناذي غراب الرأس : لا تطر .
- * مرحب بالمولت والعيش دجى وحمام المرء كالفجر سطع !

ريناه يذكر ان شعره لا يزال اسود ، وان الشيب تأخر عنه ، وانه يود ان يموت في شرح الشباب ، بعد ان كان قد قال في صدر اللزوميات ان رأسه قد اشتعل شيباً ، وانه مل الزمان ومله الزمان ، وانه لم يبق فيه الا بقية من الحياة . وبنا اننا لم نعهد

بعدُ رجلا علاه الشيب ثم عاد شعره اسود قائماً فاننا نجزم بان المعري نظم هذه الابيات التي على حرف الراء والعين قبل تلك التي نظمها على حرفي الهمزة والباء، ولكنه جعلها في اللزوميات متأخرة في الترتيب عن اخواتها .

واما القرينة الرابعة فتتعلق بتطور اسلوب المعري ويتفاوت النضج في لزومياته . ولا اظني اعدو الحق اذا قلت ان آراء الشاعر او الاديب او العالم او الفيلسوف تكون في اوائل اشتغاله بفننه اقل نضجا مما تصبح عليه في اواخر عمره ، ولا اخطى الصواب اذا قلت ان اسلوب الرجل يكون في اول امره معقداً مبهماً قليل الصقل كثير التكلف ، فاذا تقدم في السن وهو يساير اسلوبه تناقصت سيئات ذلك الاسلوب وتزايدت حسناته . وكذلك اذا كان المرء - في اوائل حياته - قليل النضج الفكري اخذ اسلوبه بالتنميق والترقيش وجعل وكده اللغة والصناعة فكانت الفاظه اكثر من معانيه ؛ فاذا نضجت آراؤه وكثرت افكاره واخذت معانيه تتدفق على قلمه اهل التنميق والترقيش واغفل الصناعة من جناس وطباق ووازنة ، ان لم يكن الاغفال كله فبعضه . واننا لنرى مثل ذلك في لزوميات المعري . خذ مثلاً قوله في حرف اللام المكسورة (في اواخر ذلك الحرف) :

حكيم تدل على حكيم قادر متفرد في عزة بكمال
والمال خدن النفس غير مدافع والفقر موت جاء بالاهمال
او ما ترى حكيم النجوم مصوراً بيت الحياة يليه بيت المال ؟
ومن الجهات الست ربي حائطي لا عن عيني مرة وشمالي .

وبعد هذه اللزومية الضعيفة الاسلوب تأتي لزومية اخرى لا نضج فيها ؛ حتى ان فيها آراء تناقض ما عرف من فلسفته من قلة الثقة بالعقل ومن القول بجلود البشر وبال دعوة الى النسل :

يا صاح ، ما اهوى وما اقلي ؟ ثقلي علي ، فلا ترد ثقلي .
ان العقول تقول مؤاينة : ليس الانام كتابت البقل .
صدئت خواطرننا فما (صقلت) ؛ والمكث احوجها الى الصقل .

ذنيك دار كل ساكنها متوقع سبياً من النقل .
والنسل افضل ما فعلت بها ، واذا سميت له فعن عقل !

وهناك لزوميات اخرى من هذا الباب تجرد واحدة منها ، في حرف اللام
أيضاً ، يذكر فيها انه لا يزال شاباً وانه لا يزال حاملاً ، ونحن نعلم انه في اواخر
أيامه طبقت شهرته الآفاق ووفد عليه الطلاب من كل صوب :

حبذا العيش والزمان غرير والفتى ما استجد حُلّة كهل .
وخولي يذود عني الرزايا نام عني الاذى فلم ينتبه لي .
وهاك الآن هذه اللزومية ، وهي اول لزومية في حرف الهمزة ، فانظر
فيها متانة الاسلوب وحرية التعبير ونضج الآراء واصابة المرعى واثر الاختبار
الطويل :

تشذ وتنأى عنهم القرباء .
ولا كان منهم للخرد سباء .
يروح بادنى القوت وهو حباء .
ولو نوص لي بين النجوم حباء .
فاضف إن اجدى لديك ربا .
ولا بعد مر الاربعين صبا .
وبيني ولم يوصل بلاي با .
بعدوى فما اعدتني الثوبا .
وعلمي بان العالمين هباء .
تلفع نيران الحريق أبا .
نهوض ولا للمخدرات إبا .
ولاية على امصارهم خطباء .
عليك حقوداً انهم نجباء .

اولو الفضل في اوطانهم غرباء .
فما سبأوا الراح الكُميت اللذة .
وحسب الفتى من ذلة العيش انه
اذا ما خبت نار الشبيبة سامني
أرابيك في الود الذي قد بذلته
وما بعد مر الخمس عشرة من صبا
تواصل جبل النسل ما بين آدم
تساب عمرو اذ تساب خالد
زهديني في اخلق معرفتي بهم
وكيف تلافى الذين فات بعدما
اذا نزل المقدار لم يك للقطبا
على الولد يجني والد ، ولو انهم
وزادك بعداً من بينك ، وزادهم

فمن كل ما تقدم نرى ان المعري نفسه ذكر انه لما كتب مقدمة اللزوميات كانت كل اللزوميات منظومة ، وانه بدأ عندئذ فقط بترتيبها . ثم رأينا ان المعري يذكر في اثناء اللزوميات سني عمره مرة بعد مرة او يشير الى شبيهه وشبابه . ولقد رأينا ان المعري يذكر تلك السنين على غير ترتيب فتأتي « الخمسون » قبل « الاربعين » وبعدها ؛ ورأينا ايضاً ان المعري يذكر الشيب ويذكر مملته من الحياة وايشاكه على الموت ثم يعود فيذكر الشباب واسوداد الشعر ويذكر انه يود ان يموت شاباً . ثم رأينا ايضاً ان هنالك لزوميات ، اذا اعتبرنا ضعف اسلوبها وقلة النضج فيها وجب ان تكون قد نظمت في اوائل عهد المعري باللزوميات وهي مع ذلك تأتي في حرف اللام ؛ ورأينا لزومية بلغت من قوة الاسلوب وكثرة النضج مقاماً كبيراً وهي مع ذلك اللزومية التي تنصدر اللزوميات كلها في اول حرف الهجزة .

وهناك ايضاً قصة صالح بن مرداس صاحب حلب ، تلك القصة التي وقعت عام ٤١٨ هـ ، فان المعري ذكرها في الحروف الآتية : في الدال والراء والقف واللام ، والارجح انه نظمها في وقت واحد او في اوقات متقاربة ثم فرقها في اماكنها الحالية .

وعلى هذا يكون ترتيب اللزوميات الآن ترتيباً تابعاً لحروف الروي بصرف النظر عن زمن نظمها . اما نظمها فقد جرى في الاعراب على الشكل الآتي :

كان المعري ينظم « مجموعاً » من اللزوميات على حرف واحد عادة ، ثم ينظم « مجموعاً » جديداً على حرف آخر ، سابق عليه او متأخر عنه ؛ وربما نظم بين الفينة والفينة لزومية مفردة . ولقد استمر في ذلك حتى اصبح لديه الف وخمسة وثلاثون وتسعون لزومية تشمل عشرة آلاف وسبعمائة وواحد وخمسين بيتاً تتفرق بين حروف القوافي المختلفة بنسب متفاوتة . فبينما نجد على روي الراء اثنتين وثلاثين واربعين لزومية ، فانك لا تجد على روي الالف اللينة او الغين او الواو الا ستاً فقط . وكذلك تفرقت هذه اللزوميات على ثلاثة عشر مجزاً من مجرور الشعر تفرقتنا عظيم التفاوت ، فبينما ترى البحر البسيط قد

فاز بأربعمائة وثمانية وعشرين لزومية اذا بالبحر المديد لم يفز الا بلزوميتين اثنتين^(١) .
ولما قنع المعري بأن هذا العدد من اللزوميات أصبح كافياً - وان لم يكن في الحقيقة موزعاً توزيعاً عادلاً ولا كافياً بين حروف الروي ، ولا بين مجور الشعر العربي انصرف الى ترتيبها على القوافي كما هي مشبته في النسخ المطبوعة عموماً . وهكذا تقدمت لزوميات بفضل قوافيها وكان من الحق ان تتأخر ، فيما لو راعينا تاريخ نظمها ؛ وتأخرت لزوميات كان من حقها ان تتقدم .

وبعد فما فائدة هذا العناء في محاولة ترتيب اللزوميات ترتيباً تاريخياً صحيحاً أو شبه صحيح ؟

لذلك وائدتان كبيرتان :

١ . دراسة التطور في آراء المعري لتفهم مقاصده .

٢ . نفي التناقض الذي يزعمه بعض المتأدبين في لزوميات ابي العلاء ؛ فاذا رأيناه يقول مثلاً :

- ان العقول تقول مؤوية : ليس الانام كنبات البقل .
- دنياك دار كل ساكنها متوقع سيباً من النقل .
- والنسل افضل ما فعلت بها واذا سمعت له فعن عقل .

ورأيتـه ينقي ان يكون البشر صائرين الى العدم ، وانهم يخافون النقلة من الدنيا ؛ ورأيتـه يحثهم على النسل باعتدال ، ثم قرأت له رأياً منافضاً لذلك كله تمام المناقضة :

- * سحائب للسقيا وسحب من الردى ونبت اناس مثلها بت البقل .
- * وليس جسوم كالنخيل وان سما بها الفرع الا مثلها نبت البقل .
- * خصاؤك خير من زواجك حرة فكيف اذا أصبحت زوجا لموس !
- * اذا لم تكن دنياك دار اقامة فما لك تبنيها بناء مقيم ؟

(١) هذه الاحصاءات الطريفة مأخوذة من « جولة في لزوميات المعري » وهي رسالة تقدم بها كمال خليل اليازجي عام ١٩٤٢ الى الدائرة العربية في جامعة بيروت الاميركية لنيل درجة استاذ في العلوم .

ارى النسل ذنباً للفتى لا يُقاله فلا تنكحنَّ الدهرَ غيرَ عقيمٍ .
* اذا شئتَ يوماً وصلةً بقرينة فخيرُ نساءِ العالمينَ عقيمها .

لم يجز ان تنسب ذلك الى التناقص والتردد ، والى ان المعري يحل في مكان ويربط في آخر ، وينفي هنا ويشبث هناك ، بل وجب ان تنظر في الترتيب التاريخي لتلك اللزوميات فتري حينئذ بلا ريب ان آراء المعري تتطور مع الايام احياناً كما تتطور آراء كل فيلسوف آخر في الشرق او الغرب .

*

اما ترتيب جميع اللزوميات ترتيباً صحيحاً دقيقاً فما يدخل في باب المستحيل ، ولكن هنالك لزوميات يمكن ان نعرف زمن نظمها بالاضافة الى اخواتها معرفة عامة وبشيء من الايقان والاطمئنان .

اتجاه المعري في اللزوميات - تسود اللزوميات اربع عناصر تصبغ آراء المعري

بصبغة ناصعة باهرة وتوجه تفلسفه توجيهها ثابتاً . هذه العناصر لا يمكن ان تعد من عناصر شخصيته ، وان كانت في بعض نواحيها ذات صلة بها ، ولا يمكن كذلك ان تسرد في خصائصه الفنية . ومع ان الكلام على بعضها قد ورد مجملاً عند الكلام على مقامه في تاريخ الفلسفة فيجدر بنا هنا ان نستشهد عليها من لزومياته :

(١) تقيته - يأخذ المعري « بالتقية الفكرية » ، فهو لا يجب ان يصرح بأرائه ، لاعتقاده ان ذلك مضر به ومضر بالناس . ولذلك يلجأ الى كتمانها (ولعله كتم كثيراً مما كان يعتقد) ، واما الى الاعراب عنها بصور رمزية وتراكيب معقدة او بالتلميح فقط ، واما بذكر الحقائق مجردة من كل تعليق وتعليل ، ثم يذكر معها اموراً ينفر منها بعض الناس بطبعهم . فاذا وازن الناس بين ما قبلوه وهم يستحسنونه ، وبين ما يرفضونه عادة وهم بلا ريب يستقبحونه ، ثم رأوا ان الامرين شبيهان ، ادركوا ما اراده المعري من غير ان يذكره هو صراحة . أليس المعري يقول :

* ارائيك فليغفر لي الله زاتي بذلك ، ودين العالمين رياءاً
وقد يُخاف الانسان ظنَّ عشيره وان راق منه منظر ورؤا

من لي الا اقيم في بلد
يُظن لي اليسر والديانة والعلو . . .
اذكر فيه بغير ما يجب

اقررت بالجهل وادعي فهمي
قوم ، فامري وامرهم عجب .

- * اقرضكم ثناء غير حق
- * اُعبد الله ، لا تظاهر لمن جا
- * رُب خفض اتاك من بعد بأسا
- * أوف ديوني واخل اقراضي
- * قد نال خيراً في المعاشر ظاهراً
- * لا تقيّد عليّ لفظي فاني
- * وليس على الحقائق كل قولي .
- * اهوى الحياة ، وحسي من مصائبها
- نطالب الدهر بالاحرار وهو لنا
- فاكتم حديثك لا يشعر به احد
- كأذا منه في مجرى سباب
- ورت يوماً بسنة او برفض ؛
- وبؤس لقيته بعد خفض .
- مثلك لا يهتدى لاغراضي !
- من بات تحت لسانه محبوباً .
- مثل غيري تكلمني بالمجاز .
- ولكن فيه اصناف المجاز .
- أني اعيش بتمويه وتدليس .
- مُبينُ عذرين : افلاسٍ وتفليس .
- من رهط جبريل أو من رهط ابليس .

فالمعري يتستر بهذه التقية الفكرية ويوصيك بها انت ايضاً ، ثم يعلن لك بصراحة :
انك لا تستطيع الاهتداء الى اغراضه . ولا عجب في ذلك ، ان رجال الفكر في
الشرق والغرب قد تعرضوا لاذى العامة ولنقمة بعض الخاصة حينما صرحوا بأرائهم .
ونحن على ثقة من ان المعري يقصد بلزومياته اكثر مما نستطيع ان نعرف منها صراحة .

ولا ريب في ان لتقية المعري هنا ، كما لتقية اكثر الفلاسفة ، هدفين : اولهما خوف
المعري من ان يناله اذى العامة واذى بعض الخاصة ؛ وثانيهما ان على الفيلسوف واجباً
تهذيبياً نحو المجتمع ، فيجب على الفيلسوف الا يزعزع ايمان العامة بان يلقي اليهم شبهات
تضر بهم ولا تقيدهم ؛ الا انه يستطيع ان يرمز احياناً او يشير الى اغراضه من طرف
خفي بعض الحفاء فيفهم عنه الخاصة من غير ان تتأثر به العامة . وانك ترى المعري يتألم
من هذه التقية تألماً شديداً :

لها الله داراً ما تُدارى بمثل الميّن في لُحج وقس^(١) .
 اذا قلت المُحال رفعت صوتي وان قلت اليقين اطلت همي ا
 (٢) لا ادريته وشكته - والمعري يرى كما مر معنا ان « ماهيات الامور » نفسها
 محجوبة عن ادراكنا ، وانه هو لا يدريها ، ثم يعلن ان الآخرين ايضا لا يدرونها
 ويتحداهم بذلك اشد التحدي :

- * اما اليقين فلا يقين ، وانما
- * سألت عقلي فلم يجبر ، فقلت له :
- قالوا فالوا ، فلما ان حدودهم
- * سألت عن البواكر اين اضحت
- وهل ارواح هذا الخلق الا
- وما يدري الفتى ، والظن جهل ،
- * ارى هذيانا طال في كل امة
- * سألتموني فاعيتني اجابتكم .
- اقصى اجتهادي ان اضن واحدسا .
- سل الرجال ، فما افتوا ولا عرفوا .
- الى القياس ابانوا العجز واعترفوا .
- وعن اهل التروح اين باتوا .
- عوارى المقادر لا الهبات .
- واقضية المليك مغيبات .
- يُضمّنه اجازها وشروحها .
- من ادعى انه دار فقد كذبا !

واللاادرية مذهب فلسفي يدل على الموقف الذي يتخذه بعض المفكرين تجاه بعض
 الامور الفلسفية والدينية ، ومؤداه ان المعرفة العلمية والحقيقية غير ممكنة الا فيما
 يتعلق بالمظاهر الطبيعية (المادية) فقط . واما ما وراء تلك المظاهر الطبيعية - كالبحث
 في الله والخلود والنفس والثواب والعقاب - فليس لنا عليه دليل يجيز لنا ان نثبت شيئاً
 ما من ذلك او ان ننفية ؛ وذلك بعينه قول حكيم المعرفة :

والانسان ظاهراً ما يراه وليس عليه ما تخفي الغيوب ا

وقريب من اللاادرية مذهب « الشك » ، ولقد اخطأ بعض متأدينا - حتى
 اولئك الذين هم مل افواه الناشئة واشباه الناشئة - فهم « الشك الفلسفي » وخطونه
 بلفظ الشك الذي يجري علي السن العامة . وليس الشك الفلسفي خطوة في سبيل المعرفة
 الحقيقية ، او تردداً قبل ان يعرف الانسان الحقيقة ، ولكنه نتيجة البحث والتقصي ،

(١) الفوص ، ويقصد به التستر .

ثم الافتناع بان الحقيقة او المعرفة الحقيقية لا يمكن ان تنكشف للبشر .
واما مبدأ الشك (الفلسفي) فهو الارتفاع العام بصحة الاحكام المتعلقة بالامور التي
تقع وراء نطاق الاختبار الانساني . ثم انك لا ترانا ايضاً ، حتى فيما يقع ضمن نطاق
الاختبار الانساني نفسه ، نستنتج تلك الاحكام استنتاجاً عقلياً ، ولكننا نؤمن ، عن
غير طريق العقل ، بالاعتقاد بها . فاذا كنا نعتقد ، مثلاً ، ان النار تسخن الاشياء ،
وان الماء ينعش الكائنات الحية ، فما ذلك الا لأن كل اعتقاد مخالف لهذا الاعتقاد
يكلفنا عناء عظيماً من التفكير الشخصي ، فيما قال بعض الفلاسفة . وهذا ما اقصده
المعري حينما قل :

* في كل امرك تقليد رضيت به حتى مقالك : ربي واحد احد .
وقد اومنا بفكر في بدائعه وان تفكر فيه معشر لحدوا .
واهل كل جدال يسكون به ، اذارأوا نور حق ظاهر حججوا !
* ولعل دنيانا كركدة حالم بالعكس مما نحن فيه تُعبرُ .
فالعين تبكي في المنام فتجتي فرحا وتضحك في الرقاد فتعبر .
* والمرء ينكر ما لم تجر عاداته بمثله ، ثم يبغي الحوت في الغدُر .
* انما نحن في ضلال وتعليل فان كنت ذا يقين فهاهه !
* فاللب ان صح اعطى النفس فترتها حتى تموت ، وسمى جدها لعبا .
وما الغواني الزوادي في ملاعبها الا خيالات وقت اشبهت لعبا !
واخيراً يرى المعري كل شيء في الحياة خلاف ظاهره و « يشك » في كل شيء .
فيها شكاً فلسفياً فيقول :

* افي الدنيا ، لحاها الله ، حق فيطاب في حنادسها بسُرُج ؟
* اري الناس شراً من زمان حواهم ، فهل وجدت للعالمين حقائق ؟

٣ - التشاؤم - التشاؤم ابرز ما يسود لزوميات المعري . والتشاؤم ليس ، عند
التحقيق ، من الفلسفة ، ولكنه يأس وقنوط من الحياة : ولا يقوم تشاؤم الرجل العادي

عادة ولا تفاؤله على انس نظرية ولا على مذهب فلسفي، ولكن على احوال نفسانية عارضة في حياته العملية العامة والخاصة . ويكون الانسان متأثراً ، في حاله من تشاؤم وتفاؤل باحوال حياته من فقر او غنى ، ومن صحة او سقام ، ومن نجاح او خيبة ؛ ولمزاج الانسان اثر كبير في توجيهه نحو التشاؤم والتفاؤل .

والتشاؤم يكثر في الفلسفة الشرقية والبوذية على الاخص ، ويظهر في التصوف . ولكنه نادر جدا في الفلسفة الاوروبية الحديثة كما نرى عند شوبنهاور مثلا . اما المعري فمتطرف في تشاؤمه لا يزي من الحياة الا الناحية السوداء ، حتى ان الناحية البيضاء لو تعرضت له لاعرض عنها . تأمل ذلك كله في قوله :

عرفت سجايا الدهر ، اما شروره فنقدت ، واما خيره فوعدت .
 اذا كانت الدنيا كذلك فخلها ولو ان كل الطالعات سعودت .
 رقدنا ولم نملك رقاداً عن الاذى وقامت بما خضنا ونحن قعودت .
 فلا يرهبن الموت من ظل راكبا فان انحداراً في التراب صعودت .
 وكم انذرتنا بالسيول صواعق وكم خبرتنا بالغمام رعودا .
 وهو حينها التفت لا يستطيع عينه ان ترى الا اثر في كل شيء ، حتى في الحياة نفسها :

* غلت الشرور ، ولو عقلا صيرت دية القتييل كرامة للقساتل .
 * وردت الى دار المصائب مجبراً واصبحت فيها ليس يعجبني النقل :
 اعاني شروراً لا قوام بمثامها وادناس طبع لا يهذبه الصقل .
 * الا انما الدنيا نخوس لاهلها فما في زمان انت فيه سعودا !
 * لو كنت رائد قوم ظاعنين الى دنياك هذي لما اُفقيت كذاها ،
 لقلت : تلك بلاد نبتها سقم ، وماؤها العذب سُم للفتى ذابا .
 هي العذاب فجدوا في ترحلكم الى سواها واخلوا الدار اعذابا^(١)

(١) لعل الاعذاب هنا (ترك) (بفتح فسكون) . وفي الاصل « لو كنت . . . » بفتح مخاطب واخترت انا ضمها .

ومما يستغرب في ظاهره ان المعري المتشائم يدعو الناس الى الاليتفاء لولا وألا يتشاءموا ،
وايس في ذلك تناقض : لقد استوى عند المعري الخير والشر والموت والحياة والفقر
والغنى فاصبح لا يفرح بخير يمكن ان يناله ولا يبتأس بشر يمكن ان يصيبه ، وهو من
اجل ذلك يدعو الى ترك التفاؤل والتشاؤم :

* لا تفرحن بقأل ان سمعت به ولا تطير اذا ماناعب^(١) نعبا ،
فاخطب اقطع من سرا . تأملها ؟) والامر ايسر من ان تضرم الرعبا .
* أسررت اذ مر السنيح تفاؤلا؟ والفأل من رأيي لعمرك فائل
* رأيت فحل الدهر في امم . مضت قبلا و مرج قبائل . بقبائل ؟

على ان هذا التشاؤم الشديد لم يمنع المعري من ان يدعو الناس الى عمل الخير والى
الاخلاق الكريمة ، وذلك لانه هو شخصياً لم يهتم بالتشاؤم - بعد ان رفض يده من
طاب الجاه والمال واللذة في الدنيا - بل اراد ان يكون الانسان نفسه مثلاً للخلق
النبيل ومثلاً للعدل ، بصرف النظر عن الناس ، وعماً ينال الانسان منهم من شكر او
عطف او اعجاب او اذى .

(٣) اتباع العقل - ومع ان المعرفة الحقيقية تعيا على البشر ، فان المعري يحب ان
يتبع الانسان العقل في كل ما يفعل ، وان يترك التقليد . ان هنالك اموراً كثيرة قبلها
الناس عن سبقهم ، وهنالك قوم يعملون اعمالا لا تتفق مع وجود العقل في البشر فهو
يهاجم هؤلاء ويحشهم على الاهتداء بنور العقل في كل شيء :

* فلا تقبلن ما يجبرونك ضلة اذا لم يؤيد ما اتوك به العقل .
* يرتجي الناس ان يقوم امام ناطق في الكتيبة الخرساء ،
كذب الظن لامام سوى العة ل مشيراً في صبحه والمساء .
فاذا ما اطعته جاب الزح مة عند المسير والارساء .
* فشاور العقل واترك غيره هدرأ فالعقل خير مشير ضمه النادي .
* تستورا باور في دياتهم وانما دينهم دين الزناديق .

- نكذب العقل في تصديق كاذبهم والعقل اولى باكرام وتصديق .
 * وكم غرت الدنيا بنبيها ، وساءني من الناس مين في الاحاديث والنقل .
 ساتبع من يدعو الى الخير جاهداً وارحل عنها^(١) . امامي سوى عقلي .

ويرى المعري ان يتبع الانسان عقله في كل امر : في الامور المحسوسة وفي الاخلاق وفي ما وراء الطبيعة ، وستعلم تفصيل ذلك في موضعه ، اذ كنت هنا لا اتناول اتجاهه العام في هذا الموضوع .

٤ : التفكير العملي المادي - يرى المعري ان ثمة اموراً يشغل الانسان نفسه بها وهي لا فائدة لها ، ويخص بالذكر شيئين اثنين : اولهما كثرة الجدال في الدين واليه مما لا يؤدي الى خير ؛ وثانيهما الاغراق في القيام بامور فرضها الدين فرضاً شكراً .

كالصلاة والصيام والتسبيح ؛ وهو يفضل على هذه كلها ما فرضه الدين ايضا من الزكوة خاصة ومن عمل الخير ومن كل ما يؤدي الى نفع اجتماعي ؛ وتراه احياناً يفكر في ذلك ، تفكيراً عملياً متطرفاً حتى ليصح ان تجعله تفكيراً مادياً صرفاً :

- * فَعَفُوا وَصَلَّوْا وَاصْتَمَوْا عَنْ تَنَاظُرِ فِكْلِ امِيرٍ بِالْحَوَادِثِ يُعْزَلُ .
 * وَجَدْتَ النَّاسَ فِي هَرَجٍ وَوَرَجٍ غُوَاةً بَيْنَ مَعْتَرِلٍ وَمُرْجٍ^(٢) .
 * اسْتَغْفَرَ اللهُ وَاتْرَكَ مَا حَكَمَى لَهُمْ ابُو الْهَذِيلِ وَمَا قَالِ ابْنُ كَلَّابٍ .^(٣)
 وَدَارَ خَصْمُكَ اِنْ حَقَّ اَنَارُ لَهُ ، وَلَا تَنَازَعْ بِتَمْوِيهِ وَاجْلَابٍ^(٤) .
 * وَاعْلَمْ اَنْ ابْنَ الْمَعْلَمِ هَازِلٌ بِاصْحَابِهِ وَالْبَاقِلَانِيْ اَهْزَلُ .^(٥)
 وَكَمْ مِنْ فَقِيهِ خَابِطٍ فِي ضَلَالَةٍ وَحِجَّتِهِ فِيهَا الْكِتَابُ الْمُنْزَلُ .^(٦)
 وكذلك يرى ان للفروض الدينية شكلاً وروحاً . وهو لا يدعو الى ترك « الشكل » ، ولكنه يفضل عليه « الروح » ويؤكد الفائدة الاجتماعية ان يجدها :

(١) عن الدنيا (٢) الاعتزال (تقديم العقل على الاخبار المروية) والارجاء (ترك الانسواء) وشأنه لان الله هو الذي يحاسب البشر على اعمالهم) من مذاهب الكلام (الدفاع عن الدين بالادلة العقلية في الاسلام) .

(٣) ابو الهذيل من علماء المعتزلة وابن كلاب من علماء الاشعرية خصوم المعتزلة . (٤) صياح (٥) ابن المعلم من معتزلة الشيعة والباقلاني من معتزلة السنة . (٦) القرآن الكريم .

* توهمت يا مغرور انك دين ؛ علي بين الله ما لك دين .
تسير الى البيت الحرام تنسكاً ويشكوك جار بائس وخدين !
* تصدق على الاعمى باخذ عينه لتهدية وامن بافهامك الصمًا .

الا انه ايضاً لا يرى لهذا الشكل من العبادة فائدة اذا نتج منها شر ، او وقع
دها ضرر :

اذا رام كيدا بالصلاة مقيمها فتاركها عمداً الى الله اقرب .

بسط آرائه الفلسفية

اولاً : الآراء المستعرضة وما فيها من
التناقض ، ونقد تلك الآراء او رفضها

ليست اغراض المعري في لزوميات « اغراضاً شعرية » اي ممددة لما يمكن ان يأتي بعدها ؛ ولكنها اغراض مقصودة قصر الشاعر الحكيم عليها شعره ، فكان عدده الابيات في كل « لزومية » ، يختلف من اجل ذلك ، حسب المعنى الذي تنطوي عليه ؛ فقد تقصرُ اللزومية فتكون بيتين ، او تطول فتكون ستة وتسعين بيتاً .

وفي هذه اللزوميات تفرقت آراء المعري . وارى ، حياً بالوضوح ، ان نقسم هذه الآراء قسمين : الآراء المستعرضة (اي الآراء التي كانت شائعة في ايام المعري ، فتناولها المعري من بيئته بالعرض والتشريح والنقد ، وبالرفض او الاستحسان) ؛ ثم الآراء الاصلية (اي الآراء التي اراد هو ان يعلما على المجتمع او ان ينفس بهاعن نفسه) .

اننا اذا فعلنا ذلك استطعنا ان نبري المعري من تهمة التناقض التي رماه بها بعض بعض الدارسين في العرب ، فجاء نفر من الشرقيين العرب فتمسكوا بها ايضاً . ان هذا التناقض المذكور في لزوميات المعري هو تناقض المتفلسفين والمتكلمين والمتفقين ، ذلك التناقض الذي ابرزه المعري ونقده او تهكم عليه ، ثم اعلن انه موجود في طباع البشر وفي آرائهم :

- • • • • تناقض في بني الدنيا كدهرهم
- • • • • - تناقض ما لنا الا السكوت له
- • • • • - اخبرتني باحاديث مناقضة فرايني منك قول غير متفق
- • • • • - ناديت حتى بد في المنطق الصحل^(١) : تحالف الناس ، في الاغراض ، والنجل

- ودان اناس بالجزء وكونه ؛
 - للخير منزلتان عند معاشر
 - والروح ارضية في رأي طائفة
 تمضي على هيئة الشخص الذي سكنت
 فاعجب لعلموية الاجرام صامته
 ولا تطيعن قوما ما ديانتهم
- وقال اناس : انما انتم بقل .
 وله على رأي ثلاث منازل
 وعند قوم ترقى في السموات .
 فيه الى دار نعمى او شقاوات
 فيما يقال ، ومنها ذات اصوات !
 الا احتيال على اخذ الاتوات

والمعري لا ينسب هذه التناقض دائماً الى الاشخاص بل يرى ان حقائق الامور نفسها
 مجهولة لا سبيل الى معرفتها كلها، ولذلك كان هذا التناقض امراً لا بد منه (كما مر بك
 في الكلام على خصائصه) وذلك عمدة لا ادريته :

- * تباين في الدين المقال فيجاهد ،
 وتُعجز دنياك القوي يرومها
 * اذا انتقلت عن الاوصال نفسي
 اسير فما اعود ، وما رجوعي
 امور يَلْتَبَسْنَ على البرايا
 * عالم حائر كطير هواء
 وصاحب توحيد وآخر مُشرك .
 ويطلب اخراه الضعيف فيدرك .
 فما للجسم علم بانتقال .
 وقد كان الرحيل رحيل قال ؟
 كأن العقل منها في عقل !
 وهواف تضمها الدأماء (١) .

ولا احسبك هنا تريد مني ان استعرض لك هذه الآراء التي استعرضها المعري ولا
 ان ابين التناقض الذي فيها على ما رأى هو ، فان معنى ذلك ان استعيد معك تاريخ
 الفلسفة بجملة وتاريخ الجدل الفلسفي بتفصيله . ولكن لا بد هنا من ابيات تدل
 على ذلك :

- * اذا كان ما قال الحكيم فما خلا
 افرق طوراً ثم اجمع تارة ؛
 * يقولون : ان الجسم يُنقل روحه
 فلا تقبلن ما يُخبرونك ضلة
 زهاني مني منذ كان ولا يخلو :
 ومثلي في حالاته السدر والنخل .
 الى غيره حتى يهذبها الصقل .
 اذا لم يؤيد ما اتوك به العقل .

(١) هواف : صغار حيوان البحر . الدأماء : البحر .

* الجسم والروح من قبل اجتماعها كانا وديعين ، لا هما ولا سبقا .
 * تفرّد الشيء خير من تالفه بغيره ؛ وتجرّ الالفسة النقا !
 ولكن الايجوز لنا ان نعد ورود آراء الاخرين عند المعري دليلا على ان المعري يقول بها ؟

قد يجوز ذلك بعد ان نعتبر امورا لا بد من اعتبارها : هل اورد المعري هذه الآراء .ورد التكهم ام النقد ام الاستحسان ؛ وهل اوردها على سبيل المثال ام ادخلها في صلب نظامه الذي اراد استخراجها ؛ وهل انتظمت هذه الآراء في ذلك الاتجاه الذي شقه المعري لنفسه ؟ ان مراجعة الزوميات .مراجعة دقيقة تنكشف عن ان جزاء كبيرا من الآراء التي يمكن ان تحدث التناقض عند المعري في اذهان بعض المتأدبين انما نتج من استعراض هذه الآراء نفسها في مناسبات شتى ؛ ثم ان المعري نفسه لم يقبل هذه الآراء بل نقدها او رفضها .

ثانياً : الآراء الاصلية في لزوميات المعري

لا اقصد هنا بالآراء الاصلية الآراء التي ابتكرها المعري وابتدتها ، ولكن الآراء التي قبلها واعتقدتها فاصبحت جزءاً من فلسفته التي ندرسها . هذه الآراء كثيرة جداً تتناول جميع اوجه الحياة التي عرفها المعري في عصره ، بل جميع اوجه الحياة التي كانت معروفة في عصره .

على انني لن اتناول هذه الآراء كلها ^(١) ، فاعدّد الحقائق اللغوية والنحوية والادبية والشعرية والتاريخية والفقهية التي اتى بها المعري في ثنايا « لزومياته » ، فليس ذلك من باب هذه الكتاب ؛ ولكنني ساقصر على النواحي التي يتناولها الفلاسفة عادة ثم ارى قيمة هذه الآراء بالاضافة الى صاحبها وبالاضافة الى آراء الفلاسفة المتقدمين على اقرانهم .

(١) حاول الاستاذ كمال اليازجي ان يستعرض هذه الآراء في رسالته « جولة في لزوميات المعري » وبذل في سبيل ذلك جهداً كبيراً (راجع الرسالة في مكتبة الجامعة الاميركية في بيروت) .

وبما ان المعري لم يرتب هذه اللزوميات ترتيباً منطقياً او علمياً او فلسفياً بل رتبها ترتيباً عرفياً بناه على قوافي الشعر ومجوره ، فاذني لن نستطيع ان اعالجها هنا معالجة منطقية على مثال ما نعالج آثار الفلاسفة ؛ وبما ان آراء المعري ليست شاملة ولا هي ممثلة لكل ما يطرقة الفلاسفة عادة كالمناطق ونظرية المعرفة وعلم مبادئ الوجود المطلق ، فساحاول ان اجمع بعض هذه الآراء الى بعض واجعل منها موضوعات بارزة اعالجها معالجات مستقلة في الاكثر . وسيكون همي تبين قيمة هذه الآراء من حيث هي آراء ، من غير ان اسعى الى استخراج نظام متسق منها .

١ - الابعان المطلق ، واللّه .

يميز ابو الملاء المعري الايمان الواحد المطلق من الاديان المتعددة المختلفة : ان وراء جميع هذه الاديان المتناقضة ايمانا واحداً مطلقاً يتساوى فيه جميع المؤمنين . من اجل ذلك يجب المعري من البشر ان يكونوا مؤمنين مثل هذا الايمان الفلسفي ويتساهل في امر اعتناق دين بعينه ؛ ثم يتطرق فيهاجم الاديان كلها ، بل يهاجم « الدين » بما هو دين . أما الايمان خاصة فهو الثقة باللّه وتسليم كل شيء اليه والرضا بما يصيبك في الحياة ، ثم الورع . ولا يدخل الايمان عند المعري في باب الجدل وعلم الكلام ؛ وان كان المعري يقرنه دائماً بالعقل :

- * اذا كنت بالله المهيمن واثقاً
- * فسلم اليه الامر في اللفظ واللفظ .
- * يدبرك خلاق يدير مقادراً
- * تحطيك احسان الغائم او تحطي .
- * اذا آمن الانسان بالله فليكن
- * ليبيبا ولا يخلط باياته كفرا .
- * فلا تترك ورعا في الحياة
- * واد الى ربك المفترض ،
- * فكهم ملك شيد المكرّمات
- * ونال بها الصيت ثم انقرض .
- * من اتقى الله فهو السالم السالي ،
- * قد طال في العيش تقيدي وارسالي
- * فارق الهك في عسر وفي يسر
- * واترك جدالك في بعث وارسال .

والمعري وطيد الايمان باللّه مطمئن الى ايمانه هذا . ولكنه لا يحاول ان يعرف الله عن طريق علماء الكلام ولا بالجدال ، وانما اكتفى بما جاء في القرآن الكريم من صفات

الله ؛ فهو في هذه الناحية النظرية من الايمان بالله اشعري . ولا ترى المعري يتكلف
ألبراهين على وجود الله ، لانه لم يشك فيه ؛ ومن لم يشك في شيء . فليس بحاجة الى ان
يأتي بالادلة على وجوده .

هذا الموقف يقتضي ان يكون ايمان المعري بالله « ايماناً وجدانياً » : انه اقتناع
فطري بوجود قوة حكيمة قاهرة هي مصدر هذا العالم والمسيطر عليه : تلك القوة التي
لم ينل عصر من العصور ولا قطر من الاقطار ولا شعب من الشعوب المتمدنه او المتوحشة
من الايمان بها .

* اثبت لي خالفاً حكيماً ولست من معشر نفاة
* قالوا ، ولما احوالوا اظهروا لداً فالقول مين وفي الاصوات تنديد
ضلوا عن الرشد ؛ منهم حاجد ججد ، او من يحدُّ ؛ وهل لله تحديد ؟
* خالق لا يُشك فيه قديم
* تعالى الله ، كم ملك مهيب تبدل بعد قصر ضيقٍ لحد .
اقر بان لي ربا قديراً ولا القى بدائه بججد .
* بوحدانية العلام دنا فذرتني اقطع الايام وحدي !

وهنا موضع ملاحظتين تتعلقان بفلسفة المعري في الله : اولاهما ان الابيات التي
يتكلم فيها المعري على الله متفاوتة في تأكيد صفاته تفاوتاً ظاهراً فبعضها اشعري بين
وبعضها قريب من النظر الفلسفي . وهذا يجب ان يكون تابعاً لتطور فلسفته في
في الاعوام المتطاوله التي نظم في اثنائها لزومياته . فما كان كثير التقوى والخشوع في ايراده
يجب ان يرجع الى زمن متقدم ، وما كان فيه تنزيه كثير يجب ان يكون متأخراً في
الزمن . واما الملاحظة الثانية فهي ان المعري كثيراً ما يذكر ان الله قد يفعل اموراً لو
اراد ، وتذكرك انت حالا ان المعري يقصد ان هذه الامور لا يجوز ان تحدث . ولكننا
ما دمنا نفترض ان الله قادر على كل شيء . فلماذا لا يكون قادراً على ان يفعل اموراً
باعيانها وان كانت من باب « الممتنع في العقل » .

ان ادخل النار فلي خالق يحمل عني مُشكلات العذاب .
يقدر ان يسكنني روضة فيها ترمى بالمياه العذاب
لا اطعم الغسلين في قعرها ولا اغادى بالجحيم المذاب

فالمعري يذكر هنا ان الله لو اراد له دخول النار لاستطاع ان يبيني له في النار
نفسها جنة تفيض بالماء الحلو الفرات ؛ وبدلاً من ان يطعمه الغسلين ويسقيه
الحميم (طعام اهل النار وشرابهم) في قعر جهنم ، فانه يخصه هنالك بنعيم اهل الجنة .
ولا ريب في ان هذا من باب « الامتناع العقلي » اذ لا يمكن ان تكون الجنة والنار مكانا
واحداً كما انه لا يمكن ان يكون الليل والنهار وقتاً واحداً . فالوقت اما ان يكون
نهاراً او ان يكون ليلاً ، وكذلك المكان الواحد في العالم الآخر اما ان يكون جنة
او ان يكون ناراً . وعندني ان المعري يورد امثال هذه « المحالات » للتعريض بالمتكلمين :

* باذن الله ينفذ كل امر
فنهيه فيض ادمعك السجوم .
يجوز بحكمة موت الثريا
وان تبقى السماء بلا نجوم .
* ان زجر الله حديداً نبأ
او امر الله حريراً كلم .

فتخيل كيف يفترض المعري الامور المحالة في الطبع والعادة ؛ انه يقول : لو اراد
الله الا يجرح الحديد لما جرح ، ولو اراد الله ان يجرح الحرير لجرح . ان ذلك مخالف
للقوانين الطبيعية ، القوانين الذي وضعها الله سبحانه ؛ فهل يتعاض الله قوانينه ؟ واظن
ان قوله :

وقدرة الله حق ليس يعجزها
حشر خلق ولا بعث لاموات
من هذا الباب .

وهنا نقتدم مسألة اخرى : ما صلة الله بالبشر ، وما صلة السماء بالارض ؟ ان
المعري لا يبحث عن هذه المسألة هنا بل في اثناء الكلام عن النبوة .

٢ - الاموات والجن والسباطين

والعاليق والاقزام والمعجزات

والمعري في هذه كلها رأي صريح ؛ انه يرفضها ولا يقبل الاخبار الواردة في شأنها

ولا يعتقد بوجودها ، ثم هو يلوم من يعتقد بوا ، وله في ذلك كله بضع آيات مشهورة :

* قد عشت دهرأطويلا ما علمت به حساً يحس لجنيّ ولا ملكٍ •
 * فاخش المليك ولا توجد على رهب ان انت بالجن في الظلماء خُشيتا
 فانما تلك اخبار ملفقة خُدعة الغافل الحشويّ حوشيتا

على انه يرجع فيقول : ان الله لو اراد ذلك لقد ر على خلق هذه المخلوقات النارية والنورانية :

لست انفي عن قدرة الله اشبا ح ضياء بغير لحم ولا دم !
 كما انه لو اراد لاستطاع ان يخلق جنة في قعر جهنم •

ولكنه احياناً يحطى في امور لم تصل الى علمه فانه لا يؤمن بالعالق ولا بالاقزام :
 زعموا رجالا كالنخيل جسومهم ؟ ومعاشر امانهم اشبار •
 ونحن نعلم ان ثمت اقزاماً طولهم اشبار قلائل •

وانك لتنتظر بعد هذا كله ان نقول لك ان ابا العلاء لم يكن يؤمن بالخوارق والمعجزات ولا بالكرامات :

زعم الناس ان قوماً من الابد ••• زار عولوا بالجو بالطيران ،
 ومشوا فوق صفحة الماء ، هذا الاف ••• لك بهيات ، ماجرى العصران •
 ما شى فوق لجة الماء ، لا السعدان ، في مامضى ، ولا العمران ^(١)

٣ - الانبياء والشرائع

رأي المعري سيء في الانبياء ، وهو يرى ان جميع الشرائع من صنع البشر • ان المعري لا يرى ان ثمت شيئاً بين السماء والارض ولا صلة مادية ، او روحية محسوسة بين الخالق والمخلوق • وهو يهاجم الرسل جميعاً مهاجمة عنيفة ، كثيرة الهوى ، بعيدة عن « صواب الازعاج الاجتماعي » ، بعيداً في الغفلة عن ادراك احوال النبوة :

(١) السعدان سعد بن ابي وقاص وسعيد بن مالك ، والعمران ابو بكر وعمر بن الخطاب .
 يعني ان هؤلاء العظام الاتقياء لم يشوا على الماء فكيف يمكن ان يشي عليه غيرهم ؟

ولا تحسب مقال الرسل حقاً ولكن قول زور سطروره .
وكان الناس في عيش رغيد فجاءوا بالحمال فكذبوه .

وهو يرى ان الانبياء ينقض بعضهم اديان بعض :

اتى عيسى فبطل شرع موسى وجاء محمد بصلاة خمس^(١) ؛
وقالوا لا نبي بعد هذا واودى الناس بين غدو امس .

ثم يأتي الناس ، ممن هم ليسوا برسل ولا انبياء ، فيكذبون على الرسل والانبياء .
غدا اهل الشرائع في اختلاف تنقض به المضاجع والمهود .
فقد كذبت على عيسى النصارى كما كذبت على موسى اليهود!

وقد وضع الانبياء شرائع لا غاية لها في نفسها ولا في مثل اعلى في الاكثر . ولكنهم
زعموا ان فيها اصلاح البشر فملأوها من اجل ذلك بما يتفق مع عقلية الجماهير من الطقوس
والفروض ؛ وهو لولا على الناس بالجنة والنار . ثم انهم رتبوا هذه الشرائع حسب ميولهم
واهوائهم . وهكذا اصبح البشر فرقا ، كل يعتقد انه على الصواب ؛ وكلهم مخطئون :

* والعقل يعجب ، والشرائع كلها
خبر يُقَلَّدُ لم يقسه قانس ؛
متمجسون ومساؤون ومعشر
متنصرون وهائدون رسائس ؛
وبيوت نيران تترار تعبدا
ومساجد معمورة وكنائس .
* ان الشرائع القت بيننا إحناً
اورثتنا افانين العدوات
* اذا رجع الحصيف الى حجاه
تهاون بالشرائع وازدراها
* دين وكفر وانباء تنقض وفر
قان ينص وتوراة وانجيل
في كل جيل اباطيل يُدان بها
فهل تفرد يوماً بالهدى جيل ؟

ثم يعود المعري فيتساءل عن الغاية من بعثة الانبياء ؛ فاذا كانت اصلاح البشر فها هم
البشر لا يزالون بعد مجيء الانبياء كما كانوا قبل مجيئهم :

(١) في اللزوميات : دعا موسى فزال وجاء عيسى وقيل يجي . دين غير هذا . . .
وفي تجديد ذكرى ابي العلاء (ص ٢٨٩) : اتى عيسى فابطل شرع موسى . . .

* كم وعظ الواعظون منا وقام في الارض انبياء ،
فانصرفوا والبلاء باق ، ولم يزل داؤك العياء ا
* جاء النبي بنحى كي يهذبكم ؟ فهل احس لكم طبعٌ بتهديب ؟
على ان حكيم المعرة يفضل محمداً على سائر الانبياء ويؤثر الاسلام على سائر
الشرائع :

* دعاءكم الى خير الامور محمد
حداكم على تعظيم من خلق الضحى
والزمكم . ما ليس يعجز جمه
وحت على تطهير جسم وملبس
وحرّم خمر اخلت الباب شرّبها
يجرون ثوب الملك جر اوانس
فصلى عليه الله ما ذر شارق
* وان لخلق الاسلام خطبٌ يغضه
وايس العوالى في القنا كالسوافل .
وشهب الدجى من طالعات وآفل ،
اخا الضعف من فرض له ونوافل ،
وعاقب في قذف النساء العوافل ،
من الطيش الباب النعام الجوافل
لدى البدو اذبال العواني الروافل .
وما فت مسكاً ذكره في المحافل .
فما وجدت مثاله نفس واجد .

وكذلك ذكر المعري السبب في ذلك : ان الاسلام دين عمل اجتماعي حث على
الورع واقتصد في فرض العبادات ودعا الى النظافة ونهى عن اتهام النساء العفيفات
وحرم الخمر ووضع الزكاة وجاء بالخلق الحميد . وهو في كل ذلك خصب المثل العليا التي
يرفعها المعري امامه وامام البشر .

٤ . الادبانه والمذاهب والدعاة واهل الطرق

واذا كان المعري قد هاجم الشرائع التي تنحو نحو تهذيب البشر فاحرر به ان يهاجم
للاديان والمذاهب التي لا غاية لها في رايه الا كسب الاموال والوصول الى الجاه والتمتع
باللذات باسم الدين . واذا كان المعري سي الرأى في الرسل والانبياء ، فهل تستغرب ان تراه
ناقماً على الدعاة واهل الطرق ومن يسميهم الناس اولياء ؟ ولقد كان المعري صريحاً جداً
في تبيان رايه في الدين عامة وفي الاديان واحداً واحداً خاصة .

* هفت الحنيفة والنصارى ما اهتدوا
 اثنان اهل الارض : ذو عقل بلا
 * واذا ما سألت اصحاب دين
 لا يدينون بالعقول ، ولكن
 * افيقوا افيقوا ، يا غواة ، فانما
 ارادوا بها جمع الخاطام فادركوا
 ويهود حارت والمجوس مضللة .
 دين ؛ وآخِر دِينٌ لا عقل له !
 غيروا بالقياس ما رتبوه .
 باباطيل زخرف كذبوه !
 دياناتكم مكر من القدماء .
 وبادوا ودامت ^(١) سنة اللؤماء !

اما اصحاب المذاهب خاصة فقد تنازعوا بمذاهبهم على الدنيا وما فيها ، والقوا البشر في خضم من التزاع والضلال لا قرار له :

* شيع اجلت يوم خم ، فانثنت
 * والناس في ضد الهدى : متشيع
 * يرتجي الناس ان يقوم « امام »
 كذب الظن لا امام سوى العة
 انما هذه المذاهب اسبا
 كالذي قام يجمع الزنج بالبه
 اخرى تعارضها بيوم الغار ^(٢)
 لزم العلو وناصبي . شاري ^(٣)
 ناطق في الكتبية الخرساء .
 ل مشيراً في صحبته والمساء .
 ب لجر الدنيا الى الرؤساء .
 مرة والقرمطي بالاحساء .

فالمعري يشبه ائمة الطوائف الكبرى بصاحب الزنج وهو علي بن ابان الذي اقتحم البصرة بقوم من الزنج والاعراب انشبو فيها الحريق واعملوا السيف وارتكبوا فيها الكبائر « وانتك الزنج جهاراً محارم الاسلام » كما يقول ابن الرومي . والقرمطي هو ابو القاسم بن زكرويه احد الغلاة هاجم مكة وانتزع من الكعبة الحجر الأسود . فمن هنا يتضح لنا رأي المعري في رؤساء الطوائف ، وهو رأي سيء بلا ريب .

(١) راجع مجلة الامالي (بيروت ، السنة الاولى ، العدد ١٥) ٤ تشرين الثاني ١٩٣٨ .
 (٢) يوم غدیر خم قال الرسول في الامام علي : من كنت مولاه فعلي مولاه ، ولذلك يعظم الشيعة هذا اليوم . ويوم الغار هو اليوم الذي خرج فيه الرسول مهاجراً من مكة بصحبة ابي بكر الصديق فاخْتَبأ في غار ثور ريثما فتر عنها بحث اهل مكة ، ثم تابعا طريقها الى المدينة .
 (٣) الشاري هو احد الخوارج خصوم اهل السنة والشيعة .

وإذا اتبعت إلى أصحاب المذاهب الفقهية الذين اختلفوا في شكل الفروض، وتحليل شيء، أو تحريمه، واستحسان شيء، أو رفضه لم تجد المعري أقل رفقاً بهم ولا بالفقهاء أنفسهم :

اجاز الشافعي فَعَالَ شيء ، وقال ابو حنيفة : لا يجوز !
 فضل الشَّريبُ والشبان منا ، وما اهدت الفتاة ولا العجوز .
 لقد نزل الفقيه بدار قوم فكان لامره فيهم 'نجوز'^(١) .
 ولم آمن على الفقهاء حسبنا اذا ما قبل اللامناء : جوزوا!^(٢)

واما الدعاة والمتصوفة واضرابهم فقد نالوا من تهكم المعري ومن عنفه شيئاً كثيراً :

* علم الامام ، ولا اقول بظئمة ؛ ان الدعاة بسيعها تتكسب .
 * صوفية ؛ ارضوا بالصوف نسبتهم حتى ادعوا انهم من طاعة صوفوا .
 تبارك الله ، دهر حشوه كذب فالمرء فيه بغير الحق موصوف .
 * صوفية شهدت للعقل نسبتهم بانها ضأن صوف نطحها يقص .
 تواجد القوم من نسك بزعمهم والله يشهد ما زادوا وما نقصوا .

اما سائر رجال الدين ممن ليسوا بانبياء ولا اصحاب مذاهب فان الكلام عليهم يجب ان يأتي في اثناء الكلام على « الحياة الاجتماعية وفسادها » .

وبعد ، فاذا كان المعري سيء الاعتقاد في الرسل والانبياء ، رافضياً للنبوات متعصباً على رؤساء المذاهب كارها للفقهاء ، وهو مع ذلك يكثر من لفظ الدين في لزومياته ، ويؤكده قيمته ، فما « الدين » اذن عند المعري ؟

ان احاول ان اترجم انا عن المعري ، ولكنتي ساتركه يتكلم هو بنفسه عما يعني اذا قال : « الدين » ، وما يتمثل هو في خياله حينما يذكر الدين :

(١) النجوز : قضاء الحاجة وتمتعها (٢) جوزوا : مروا ، يقصد ان الفقهاء غير ائمناء .

- * الدين انصافك الاقوامَ كلهم ؛ واي دين لا ياتي الحق ان وجبا .
- والمرة يعييه قودُ النفس مصحبة للخير؛ وهو يقود العسكر اللجبا .
- وصومه الشهر^(١) ما لم يجن معصية يغنيه عن صومه شعبان او رجبا .
- * الدين هجر الفتى للذات عن يُسر . في صحة واققدار من ما عمرا .

ويقرن المعري بالدين كلمة «بر» ، وهي الكلمة التي كان يطلقها الجاهليون على الورع وطاعة الاقربين خاصة ؛ وكانت فكرة البر تقوم عندهم مقام كلمة الدين في الاسلام ، وعلى هذا قول حكيم المعرة :

- * وما التقى باهل ان تسميه برًا ولو حج بيت الله واعتمرا :
- * السيد البر من لا يستجيز اذى ولا يبوح بسرٍ عنده كرتما ،
- الغامر الطارق المحتاج نائله^(٢) او ابن مرية من اماته يتما .
- لا يرفع الصوت بالقول الهراء ضحى ولا يدب الى جاراته عمًا !

ويخشي المعري ان يسيء بعض الناس فهم آرائه ويتساءلوا عن «قيمة» صلاتهم وصيامهم وحجهم ؛ أليست هذه كلها دينًا او اتباعًا للدين ؟ فتراه عندئذ يرفع صوته فيقول :

- سَبَّحَ وَصَلَّ وَطَفَ بِحِكْمَةٍ زَائِرًا سَبْعِينَ لَأَسْبَعًا ، فَلَسْتُ بِنَاسِكٍ .
- جَهْلَ الدِّيَانَةِ مَنْ إِذَا عَرَضَتْ لَهُ إِطْعَامُهُ لَمْ يُؤَلَّفَ بِالْمَتَاسِكِ .
- ان المعري يريد من الانسان ان يقوم بما يتطلبه منه الدين نحو اخوانه البشر ؛ اما ما يتطلبه منه الدين نحو الله فذلك امر راجع لله وحده . وهنا نرى المعري يأخذ برأي المرجئة الذين يوجبون الحكم على اعمال البشر الى الله يوم القيامة من غير ان يتعرضوا هم لتخطئة احد في عمله او تصويبه ؛ الا انه يتطرف في ذلك :

- ودينك ما علي الحكم فيه فابغني الذي اخفيت بغيا .
- اذا الانسان كف الشر عني فسقياً في الحياة له ورعا .

(١) رمضان . (٢) الذي اذا جاء المحتاج اليه في الليل غمره بفضاه . . .

ويدرس ان اراد كتاب موسى ويضم ان احب ولاء شعيا 1
وهكذا نرى ان الورع وصنع الخير وترك الاذى وترك القبيح وحسن الجوار هي
عناصر الدين الصحيح على شرط ان يفعلها الانسان طائعا مختاراً وقبل ان يرغم على تركها
من الكبر او العجز .

٥ - التقوى والفروض في الاسلام

المعري يأمر بالتقوى ، ويستحسن القيام بفروض الدين ؛ ولكنه يأبى ان يتستر
الانسان بهذه التقوى ليظلم الناس او يكيد لهم ؛ او يعالي بهذه التقوى من غير ان يفهم
روحها ؛ والمعري يتألم لأن قوماً لا يؤدّون هذه الفروض البتة او يؤدونها على غير
وجهها الصحيح . وكنت اود ان افصل جميع وجوه التقى والورع واداء الفروض
كالصلاة والصيام والزكاة والحج ، ولكن ذلك يخرج بنا عما نحن بشأنه ، ولذلك
ساستشهد عليها كل مرة واحدة ؛ اما لتعليل هذه الابيات فاستنتجته انت لنفسك
من قراءتها هي نفسها :

- | | |
|---|-----------------------------|
| * فان كان التقى بلهاً وِعياً ^(١) | * فاعيار المذلة اتقياء . |
| * قد اصبح الدين مضمحلاً | * وغيّرت آيةُ الدهورُ . |
| * فلا زكاة ولا صيام | * ولا صلاة ولا طهور . |
| * ازول وليس في الخلاق شك | * فلا تبكوا علي ولا تبكوا . |
| * خذوا سيري فن لكم صلاح | * وصلوا في حياتكم وزكوا . |
| * لقد رفق الذي اوصى اناساً | * بعشر في الزكاة ونصف عشر . |
| * توهمت يا مغرور انك دين | * علي بين الله ما لك دين . |
| * تسير الى البيت الحرام تنسكا | * ويشكوك جار بائس وخدين ا |

ونلاحظ ان المعري يفرق بين الرجال والنساء في اداء الفروض : ان ما
يتطلبه الدين من المرأة اقل مما يتطلبه من الرجل ، ما دامت المرأة - في زمن المعري
وفي رأي المعري - لا تستطيع القيام بالغاية العملية من الدين ، وما دامت المرأة

(١) . الهى : العجز عن النطق . الاعيار جمع عبر : الحار .

سبيلاً من سبل الفتنة التي تتعارض مع القيام بالناحية الاجتماعية من الدين ؛ ولذلك يطلب منها ان تفعل الخير كالرجل ، والا تتكلف الحج مثلاً كالرجل ؛ ولا الصلاة جماعة :

- * فصلاة الفتاة بالحمد والاخ
- * أقيمي ، لا اعد الحج فرضاً
- * متى آذاك خيرٌ فافعليه ،
- لاص تجزي عن يونس وبراهه (١) .
- على عجز النساء ولا العذارى
- وقولي ، ان دعاك الهـ : آرا (٢) .

٦ - هري العقل

يعتقد المعري ان من اتبع عقله لم يضل ؛ هذا اذا كان له عقل ! اما اذا لم يكن له عقل فهو يعمل اعماله بالتقليد ، او يساق اليها كالعجاوات . ولم يكتف المعري بان يحكم العقل في الامور التي جرت العادة بتحكيمه فيها ، بل اراد ان يكون العقل حكماً في كل شيء . وتبرز هذه الدعوة الى الاهتداء بنور العقل والفكر في اكثر الاغراض التي تناولها المعري في لزومياته ؛ حتى في العبادات . وهو في كل ذلك يزدري شيئاً ازدراء شديداً : التقليد والاحبار المروية ؛ ولذلك تراه يتلقى كل خبر مروى او كل عادة شائعة بميزان العقل ؛ وكثيراً ما شات الاخبار والعبادات في ميزان المعري :

- * كذب الظن ؛ لا امام سوى العـ ل مُشيراً في صبحه والمساء .
- * هل صح قول من الحاكي فنقبه ام كل ذاك اباطيل واسمار ؟

اما العقول فآلت انه كذب ؛ والعقل غرس له بالصدق اثمار ! وقد يعجب احدنا فيقول : ان المعري يهاجم المعتزلة ، مع انهم يفضلون العقل على النقل كما يفعل هو هنا . اجل انه ليس معتزلياً ؛ وانما هو يهاجم من المعتزلة اولئك الذين يضيعون اوقاتهم واوقات غيرهم بالجدل العقيم ، لا الذين يُجَلِّون العقل مرتبة سامية .

(١) الحمد والاخلاص صورتان قصيرتان في القرآن الكريم .

(٢) آذاك : امكنتك ، آرا : نعم ، قيل بالهندية (وهي في الفارسية : آري)

وبالغ المعري فجعل العقل نبياً :

أيها العرّان خُصّصَ بعقل فأسألنّه ؛ فكل عقل نبيّ^١ .

٧ - صورة المجتمع العامّة

إذا بدأت في قراءة اللزوميات خيل اليك ان البيئة الاجتماعية في أيام المعري كانت اشد فساداً مما سبقها او لحقها . فاذا سرت فيها الى آخرها وانعمت النظر في ثناياها بدا لك انك مغال في خيالك ، وان البيئة الاجتماعية واحدة في أيام المعري وقبل أيامه وبعدها ؛ وان هذا الفساد الاجتماعي لم يبرز في اللزوميات بمثل هذه القوة الا لأن المعري ابرزه بأسلوبه الادبي والقى عليه شيئاً كثيراً من تشاؤمه . أليس هو القائل :

وهكذا كان اهل الارض مذفُطِروا ؛ فلا يظنّ جهولّ انهم فسدوا !

وانت اذا حاولت ان ترسم من لزوميات المعري صورة المجتمع الذي عاش فيه صاحب اللزوميات لم تستطع الا استخراج صورة مشوهة ناقصة : انها ليست صورة المجتمع الذي عاش فيه المعري ، بل هي صورة لاشمئزاز المعري من هذا المجتمع عينه ، ومن كل مجتمع كان بالامكان ان يشهده المعري . هي في الحقيقة صورة لتشائم المعري فحسب . من اجل ذلك لن نحاول ان نعالج من اوجه الاجتماع في لزوميات المعري الا الوجة التي يحمل عليها التشاؤم وحده ، وهي الوجة التي عاجلها المعري نفسه .

اما علم الاقتصاد وعلم السياسة والجغرافية البشرية ونظام الادارة فليس لها وجود في اللزوميات على ما نعرفه من علم الاجتماع الحديث . واذا كان ثمت اشارات عارضة فهي اما اشارات غير مقصودة واما اشارات تتعلق على الحقيقة باه وراخري يعالجها المعري . واطن ان من الغلو ان نقول مع الدكتور طه حسين بعد ان استشهد بالبيتين المشهورين :

مُلّ المقام فكّم اعاشر امة امرت بغير صلاحها امراؤها .

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها . وعدّوا مصالحها وهم اجراؤها .

« ومن هنا نعلم ان ابا العلاء لا يرى الملك ولا وراثته ، وانما يرى الانتخاب والبيعة كما يراها الجمهوريون »^(١) . واني لاعجب كيف رأى الدكتور طه حسين في هذين البيتين

(١) تجديد ذكرى ابي العلاء المعري ٣٠٣ - ٣٠٤ .

معاني البيعة والانتخاب ومبادئ الجمهوريين ، الا ان يكون قد قاده الى ذلك لفظة « امرأؤها » ؛ ولعله لو انعم الفكر في الكلمة ثم قرأ البيت الثاني يادرس قراءة لتبين له وراء كل ريب وشك ان ابا العلاء يهاجم هنا جميع الحكام ، اورثوا « الامر » ام اغتصبوه ام تحملوا اليه على الاستتاف .

*

الا ان للمعري في الحقيقة نظرةً فاحصةً في تأليف المجتمع . فهو يرى ان البشر كلهم سواءٌ - من ناحية الطبيعة البشرية التي ستتكلم على فسادها بعد اسطر معدودات - ثم ان هذه السواسية ليست بارادة اولئك الناس ، بل بالفطرة التي فطروا عليها في كل زمان ومكان . ان المساواة بين البشر واقعة في اصلهم الواحد ، فهم كلهم من آدم لا فرق بين ابن الحرة الشريفة وابن التي تتزين للرجال :

وسيانٍ من امه حرّة حَصان ، ومن امه فرتنا (١) .

ولا فرق بين العرب والبربر ، ولا بين حر ، وعبد ولا بين هاشمي وغير هاشمي :

لا يفخرنّ الهاشمي على امرىء من آل بربر .
فالحق يحلف ما عليّ عنده الا (بكتنبر) .

ثم بالغ فجعل البشر كالسباع (الحيوانات - المفترسة) : العرب فيهم كالعجم ،
والعرب وكالزنج ، واختلط عليه الامر بين الجن وبين الناس :

* نُسَخ المعاشر فالفضنفر ثعلب في لؤمه ، والناس كالنسناس .
* وتفكّرت نفس اللبيب وقدرات : اشخوص جن ام شخوص أناس .
* عرب وعُجم دائلون ، وكلنا في الظلم اهل تشابه وجناس .
* قدّرُ غالب وامر قديم ، يتضاهي ذليله والايُّ ؛
* واختلاف من عنصرذي اتفاق ؛ وتساوى الزنجي والعربيُّ ا

(١) فرتنا اسم يوناني (فرتونه) من اساء البنات ، ويقصده ما اشرنا اليه .

وكذلك حقوق البشر الاجتماعية واحدة ولو كان ثمت عداوة بين الاقوام :
فان الناس كلهم سواء وان ذكت الحروب مضرّات .

٨ - فساد الطبيعة البشريّة

وبعد ان سوّى المعري بين البشر كلهم في الطبيعة ، ثم انحط بهم الى طبقة السباع ، حكم على طبيعتهم هذه بالفساد ، ونفض يده من اصلاحهم ، بل من امكان اصلاحهم . والبشر كلهم في ذلك سواء ، واذا قُدّر لاحد هم ان يكتب شيئاً من الخير فانه يجرّ اليه نفسه جرأً ، اما نفسه فتهدوي الى الشر هويًا . وينصحنا المعري ألا نحاول تهذيب البشر لان الله لم يرد ان يكونوا مهذبين ، ولقد حاول الانبياء مثل هذا التهذيب فخابوا . من اجل ذلك يجب ألا نلوم الناس اذا عملوا بطبيعتهم وجرّوا على سجيّتهم وانقادوا لغرائزهم ، وكلها سيئة ذميمة في الاصل :

- * جرى الناس مجرى واحداً في حياتهم
ارى الأريّ تعشاه الخطوب فينتني
- * وبين بني حواء والخالق كلهم
والطبع يهوي الى ما شان يطلبه
- * وفي الغرائز اخلاق مذمّمة ؛
لم يقدر الله تهذيباً لعالمنا
- * يغدو على خله الانسان يظلمه
وجبلة الناس الفساد ، فضل من
- * والشّر طبع وقد بُثت غريزته
الم تر ان الخير يكسبه الفتي
- * فلم يُزقّ التهذيب انشى ولا فحل^(١)
مُمرّاً ؛ فهل شاهدت من مة ريجلو؟^(١)
- * شرورٌ ؛ فهاذي العداوة والذحل؟^(٢)
لكن يجر الى ما زان بالمسد^(٣) .
- * فهل نلام على النكراء والحسد؟
فلا ترومنّ للاقوام تهذيباً !
- * كالذئب يأكل عند الغرة الدنيا .
يسمو بحكمته الى تهذيبها
- * مقسومة بين انواع واجناس .
طريقاً ، وان الشر في الطبع متلد؟

(١) الاربي : العسل ، المقر : المر .

(٢) الذحل : (ثأر والحقد .

(٣) المسد : الليف (يقصد : بجبل من ليف)

* جاء النبي بحق كمي يهذبكم ؟ فهل احس لكم طبعاً بتهذيب ؟
من هنا تعلم علم اليقين ان ابا العلاء يأخذ بالجبر ، اي بان الانسان مجبر على الاعمال
التي يأتيها في هذه الدنيا ، لان اصول تلك الاعمال مركب في طبيعته الاولى ، فكيف
يمكن ان ينجو هو منها :

حوتنا شرور لا صلاح لمثلها ؛ فان شد منا صالح فهو نادر .
وما فسدت اخلاقنا باختيارنا ولكن بامر سببته المقادر .
وفي الاصل غش ، والفروع توابع ؛ وكيف وفاء النجل^(١) والاب غادر ؟
على ان هذا الجبر ليس مذهباً فلسفياً عند ابي العلاء ، بل هو اطمئنان عملي من عمل
التشاؤم : ليس الجبر معقولا ولكنه واقع فتقبله برضى لانك لا تستطيع تعليمه
ولا تبديله :

اذا كنت بالله المهيمن واثقا فسلم اليه الامر في اللفظ والاحظ ا
ولكنه لم يستطع هو الا ان يتساءل ويتعجب :
فهل انا في ما بين ذينك مجبر على عمل ام مستطيع فجاهد ؟
عدمك يا دنيا ، فاهلك اجمعوا على الجهل : طاغ مسلم ومعاهد^(٢) .
خرجت الى ذي الدار كرها ، ورحلتي الى غيرها بالرغم ؛ والله شاهد .
وهنا يبدأ بالدخول في جدال كجدال المتكلمين (الاشعرية والمعتزلة) ويريد
ان يبدي رأياً تعود المعتزلة ان يبذوه :

ان كان من فعل الكبائر مجبراً فعقابه ظلم على ما يفعل .
والله ، اذ خلق المعادن ، عالم ان الحديد البيض منها تجعل ا
ثم يتلفت المعري حوله فاذا القدر هو الذي يسير بالناس واذا كلهم مجبر على
عمله خيراً او شراً ، الا ان تشاؤمه اجمله دائماً على الكلام على الشر فهو يقول
عن البشر :

مُدْبِرُونَ ؟ فَلَاعْتَبَ ، اِذَا خَطَبُوا عَلَى الْمَسِيِّ ، وَلَا حَمْدَ اِذَا بَرَعُوا .

(١) الابن (٢) المعاهد : اليهودي او النصراني الذي يعيش في بلاد الاسلام .

مُلَّ المُلَقَام ، فَكُم اعاشِر امةً امرت بغير صلاحها امرؤها .
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها وهم اجراؤها .
ان الامراء يأخذون من الرعية ضرائب ومكوساً ولكنهم لا يحفظون الامن
عليهم ولا يحمونهم من عدوهم :

وارى ملوكا لا تحوط رعية فعلام تؤخذ جزية ومكوس ؟

بل هم انفسهم يعتدون على الرعية :

في البدو خراب اذواد مسومة ، وفي الجوامع والاسواق خراب .
فهؤلاء تسموا بالعدول او التجار واسم اولاك القوم اعراب .
انه هنا يشبه الحكام بسكان البدو ، الا ان سكان البدو يغزون الناس بالقوة
ويستاقون خيولهم ومواشيهم ، والناس يسمنونهم اعراباً . ولكن هنالك نوعاً اخر
من اللصوص يجلسون في الجوامع وفي الاسواق فيسميهم الناس تجاراً او عدولا
(قضاة وحكاماً) :

وكل من فوق الثرى خائن حتى عدول المصر مثل اللصوص ا
والملوك في كل ذلك منصرفون الى لهوهم من عزف وتزف (موسيقى وخر)
وما يتبعها عادة ! وهم في كل ذلك لا ينفلون عن جباية الاموال الضرورية لمساعدتهم
على هذا اللهو :

رأيت الناس في هرج ومرج مغواة بين معتدل ومرجي .
فشان ملوكهم عزف وتزف واصحاب الامور ولاة خرج .
وهم زعيمهم انهاب مال حرام النهب ، او اِحلال فرج !
وكذلك كان الفساد منتشر في « القضاء » من جور القضاة واستخفافهم بقضايا
الناس ومن قبول شهادة الزور والرشوة .

١٠ - رجال الدين والمتظاهرون بالتقوى

ولرجال الدين عامة والمتظاهرين منهم بالتقوى خاصة نصيب كبير من نقمة الي
العلاء : لقد افسد هؤلاء الحياة الاجتماعية اكثر مما افسدها رجال السياسة والادارة ؛

أنهم اتخذ الدين «كلباً» يصطادون به المناصب والاموال ويتسترون به عند اتیان الكبائر والمنكرات . ولقد فرضوا على العامة اموراً ووجدوا لهم المذاهب زیادة في كسب المال ، ثم لجأوا الى النفاق والكذب في سبیل الحصول على القوت وعلى ثمن اللهو .

ويتصف رجال الدين في لزومیات المعري بالرياء والجهل والطمع والفسق - ولا ريب في ان المقصود بعضهم - واليك بعض ما قاله ابو العلاء في ذلك :

- * فالدين قد خس حتى صار اشرفه
- * بازاً نبازين او كلباً لكلاب .
- * رويدك قد غرت وانت حرر
- * بصاحب حيلة يعظ النساء .
- * يجرم فيكم الصهباء صبغاً
- * ويشربها على عمد مساء .
- * تحساها فمن مزج و صرف
- * يعلُ كلنا ورد الحساء (١) .
- * يقول لكم غدوت بلا كساء
- * وفي حاناتها رهن الكساء .
- * اذا فعل الفتي ما عنه ينهى
- * فمن جهتين لا جهة اساء !
- * وليس عندهم دين ولا نسك
- * فلا يُغرّنك ايد تحمل السبّحا .
- * فكم شيوخ غدوا بيضا مفارقهم
- * يسبحون وباتوا في الخنا سبّحا .
- * لعل اناساً في المحاريب خوفوا
- * بأي كناس في المشارب اطربوا .

يعني : لعل بعض الذين يذكرون الناس بالدين في المساجد ويجوفونهم بالله وبعذابه اشبه برجال يسكرون ويغنون في الحانات .

١١ - العامة

ليس المعري اول من احتقر العامة ولا آخر من ذمهم ، حسبك من ذلك قول القرآن الكريم : « إنهم الا كالانعام ، بل هم اضل سبيلا » . والعامة هنا معناها كل اولئك الذين يأتون اعمالاً لا يفكرون فيها : يأخذون بظاهر الفرائض ويذسّون ما وراء ذلك .

(١) مزج : ممزوجة بالماء ، والصرف ضدها . يعل : يسقاها قليلا قليلا ، الحساء : المكان

الذي تستنقع فيه الماء بقدر قليل .

على ان هنالك طبقة من الناس تؤلم المعري اكثر من العامة ، تلك الطبقة التي تعمل اعمال العامة ، او اعمالا لا تليق الا بالعامة ، ثم تتظاهر بها .
و اذا تألم المعري من العامة و اراد ان يحكم عليهم جاء حكمه قاسياً و صريحاً و ان كان فيما يعتقد الفلاسفة صحيحاً :

والخلق حيتان أجسة لعبت وفي بخار من الاذى سبجوا .
لا تحفلن هجوهم ومدحهم فانما القوم اكاب زُبج .
اقل منهم شراً و مرزبة ماركبوا للسرى وماذبجوا .
فليتهم كالبهاثم اعترفوا أجمأ ، اذا بان زيغهم كبجوا .

اما صفات العامة و صفات خاصة العامة ايضاً فهي الصفات التي نعرفهم بها في كل زمان و مكان ، منها الميل مع الهوى و الجهل و الغرور :

* وقد غلب الاحياء في كل وجهة هواهم وان كانوا غطارفة غلبا (١) .
* الى الله اشكر مهجة لا تطيعني و عالم سوء ليس فيه رشيد .
حجبي مثل مهجور المنازل دارس و جهل كسكون الديار مشيد .
* وليحذر الدعوى (٢) اللبيب فانها للفضل مهلكة و خطب موبق .

ومنها البخل و الحرص و الطمع ؛ ومنها الحسد و الحقد و النميمة و الغيبة ؛ ومنها الكذب و الرياء و النفاق ؛ ومنها الخيانة و الغدر ؛ ومنها العش و الخديعة و سوى ذلك مما لو اردت ان استشهد عليه لطال على السرد و استتال عليه الملل ، فاكتف من كل ذلك بهذه اللزومية :

رأيت قضاء الله اوجب خاقه و عاد عليهم في تصرفه سلبا .
وقد غلب الاحياء في كل وجهة هواهم وان كانوا غطارفة غلبا :
كلاب تعاوت او تعاوت لجيفة ، واحسيني اصبحت الأمهبا كلبا .
ايينا سوى غش الصدر وانما ينال ثواب الله اسلمنا قلبا .
و اي بني الايام يحمد قائل ؟ و من جرب الاقوام او سعمهم ثلبا .

وتلاحظ هنا ايضاً ان المعري يحكم على نفسه بما يحكم به على العامة ولعله يقدم الحكم على نفسه اولاً :

بني الدهر مهلاً ان ذمت فعالكم فاني بنفسي لا محالة ابدأ .
ذلك لانه يصعب على الفرد ان يكون صالحاً ذا قيمة اجتماعية عملية ، اذا كان في قوم ضالين :

اصبحت غير مميّز من عالم . مثل البهائم
وبمثل هذه الصفات يتصدى العامة وخواص العامة لكل شيء . حتى للايمان واداء الفروض :

عاشوا كما عاش آباء لهم سلفوا واورثوا الدين تقليداً كما وجدوا .
فلا يرعون ما قالوا وما سمعوا ولا يباليون من غي لمن سجدوا .
ويستمر تقليدهم حتى في ما هو صحيح بنفسه ، ولكن هم انفسهم لا يفكرون :
في كل امرك تقليد رضىت به حتى مقالك : ربي واحد احد !
وهم طبعاً لا يفكرون وهم يقومون بالفروض : تساوى في ذلك كل البشر ؛
فوقف ابو العلاء يتفرج بهم ويتساءل في نفسه (في غير اللزوميات) :

عجبت لكسرى واشياعه وغسل الوجوه ببول البقر ؛
وقول اليهود آله محب رَشَّاشَ الدماء وريح القتر^(١) ؛
وقول النصارى آله يُضامُ ويظلم حقاً ولا ينتصر ،
وقوم اتوا من اقاصي البلاد لرمي الحجار ولثم الحجر .
فيا عجباً من مقالاتهم ؛ ايعمى عن الحق كل البشر ؟

واما اندفاع العامة في الموبقات والمنكرات واتيانهم الكبائر فلا ارى ان اسرد عليك منه شيئاً هنا لانه في الدرجة الاولى بعيد عن موضوع التلسفة ؛ وهو فوق ذلك معروف مشهور . وقد سبق لنا القول في بعضه ، وسيجيء القول في بعضه بعد اسطر قلائل .

(١) القتر : ريح اللحم المحروق (اشارة الى انهم يقدمون القرابين لله) .

١٢ • المرأة والزواج والنفس

يلام المعري على رأيه في المرأة لانه جعلها مصدر كل شر ، وهو لم يطرق موضوع المرأة من الناحية العقلية بل من الناحية الاجتماعية التي كانت سائدة في ايامه . على اننا اذا علمنا سبب تشاؤمه وفساد البيئة الاجتماعية في ايامه استطعنا ان نلتمس عذراً لتلك القسوة والظلم وسوء الظن التي تناول المعري بها المرأة .

وموضوع المرأة - حتى في لزوميات المعري - بحر بعيد القرار بعيد الساحل ، ولكن لا بد من اجمال ما فصل منه ابو العلاء . ومن الاستشهاد عليه .

اذا كانت الطبيعة البشرية فاسدة من اصلها فان فسادها يعم الرجال والنساء على السواء ، الا ان ابا العلاء يرى ان الخطر من فساد الرجل اخف من الخطر من فساد المرأة وذلك بين السبب : ان الطبيعة التي فرقت خصائص البشر حابت الرجل فجعلت اندفاعه في الملذات قليل الاثر الظاهر في نفسه وجسده ؛ اما المرأة فقست عليها لما جعلت اثر ذلك في نفسها وجسدها ظاهراً . وبما ان قبضة القانون لا تنال الا من ظهرت عليه آثار الجريمة ولو كان . ظلوماً ، فان المجتمع حمل المرأة من التبعة اكثر مما حمل منها الرجل ، او حملها كلها للمرأة ؛ وكذلك فعل ابو العلاء .

فاذا اردنا ان نسأل ابا العلاء رأيه الصريح في المرأة وامنيته التي يصبو الى ان تتحقق ، انشدنا من لزومياته بيتاً واحداً :

ودفن - والحوادث فاجعات - لاحداهن احدى المكرمات ا

ولكن ابا العلاء لم يستطع صرف هذا الموضوع المعقد بمثل هذا اليسر والسرعة ، فاضطر الى ان يبسط لنا آراءه في اماكن مختلفة من اللزوميات ، واحسب انه استوفى اكثرها في تائيته الكبرى وهي ستة وتسعون بيتاً :

ترخم في نهارك مستعينا بذكر الله في المترنات .

التي سنكثر الاستشهاد منها فيما نستشهد به من لزومياته .

المرأة فتنة الرجل تتعرض له بدلهَا وبزيتها وبوقمها من قلبه وبالخاجة اليها من نفسه فتغويه ؛ وبدء الفتنة بين الرجل والمرأة رد السلام :

- ولا تَرَجِعِ بِإِيَاءِ سَلَاماً عَلَى بَيْضِ أُشْرَنِ مَسَلِمَاتٍ
- اولات الظالم^(١) جئن بشر ظلم
- وقد واجهننا متظلمات
- فوارس فتنة اعلام غي
- لقيتكَ بالاساور مُعَامَلَاتٍ^(٢)
- وسام^(٣) ما اقتنعن مجسن اصل
- فجنثك بالخضاب موشحات
- رأين الورد في الوجنات خيا
- فقادين البنان معنات^(٤)
- وشفنن المسامع قائلات ؛
- وكلمن القلوب مكاملات^(٥)
- وقد يصبحن عن بر ونسك
- باطيب عنبر متنسبات
- كأن خواتم الافواه فضت
- عن الصهب العذاب^(٦) تخمات
- خور الريق لسن بكل حال
- على طلابهن محرمات ا

ومواطن الزلل بين الرجل والمرأة كثيرة ولكنها كلها ترجع الى رفع الحجاب بينهما (اي الى اجتماع الرجال بالنساء) حتى في الاماكن التي لا يسبق الذهن عادة الى سوء الظن بها كجالس العلم ، هذا ولو كان معلمين رجلا اعنى يعلمهن القرآن :

- ويتركن الرشيد بغير اب
- اتين لهديه متعاملات
- ولا يُدْزِنُ مِنْ رَجُلٍ ضَرِيرٍ
- يلقنهن آياً محكمات ،
- سوى من كان مرتعشاً يداه
- ولتسه من المتشغفات^(٧)

اما مجالس الخمر والغناء ، واما الجوار في البيت والرفقة في الطريق والزمالة في العمل والزيارة للمنجم او للعرائس الجديديات فمما يجب ألا نطيل الكلام فيها :

- وان جئن المنجم سائلات
- فلسن من الضلال بمنجات^(٨)
- وان طاوعن امرك فانه غيذاً
- يزرن عرائساً مميمات^(٩)

(١) الريق (٢) ذوات علامة ظاهرة (متديبات) (٣) جميلات (٤) الخيم : السجية والطبيعة ، البنان : رؤوس الاصابع ، معنات : مصبوغات بالعم وهو نبات احمر الصباغ .
 (٥) كلمن : جرحن ، مكلمات : متكلمات (٦) الصهب العذاب : المحمور الحلوة .
 (٧) شعره شائب (٨) مقالات (مبتعدات) (٩) قاصدات

اخذن كريش طاووس لباساً ومسكاً بالضحى متلغيات^(١) .
وابعدهن من ربات مكر سواحر يفتدين معزّات^(٢)
يقلن : نهيج الغياب حتى يجيئوا بالركاب مذمات^(٣) ،
ونعطف هاجر الخلان كيا يزول عن السجايا المسئيات ؛
وجمع طوائف العُمار سهل علينا بالجوالب موزمات^(٤)

ولو اجتمعت النساء للعبادة واعتكفن (حبسن انفسهن على عبادة الله) في المساجد .
لاممكن ان يكون اجتماعهن من اسباب الغواية ايضاً :
وليس عكوفهن عن المصلى امانا من غوارر مجرمات^(٥) ا
على ان الرجل ايضاً يحمل قسطاً كبيراً من الاغواء ، ذلك لأن الفسق عام في
البشر كلهم .

من اجل ذلك ينصح المعري بيجاب المرأة (بمنعها من الاختلاط بالاجانب) : يجب
ان تشغل نفسها بادارة شؤون بيتها ، وبان تتوفر على العبادة ، واذا وجدت فراغاً
فلتحمل المغزل وتنزل صوفاً . اما العلم فلا حاجة لها به ، الا القليل النادر الذي يمكن
ان تتعلم به سورتين قصيرتين من سور القرآن الكريم تتلوها دائماً في صلاتها ؛ واما
ما فوق ذلك فخطر عليها كبير :

ولا تحمد حسانك ان توافت بايد للسطور مقومات .
فحمل مغازل النسوان اولى بهن من اليراع مقلّات^(٦) .
سهام ان عرفن كتاب لسن رجعن بما يسوء مسلمات^(٧) .

- (١) واضعات للطيب (٢) تاليات اقوالا غير مفهومة كما يفعل الساحرون والمشعوذون عادة .
(٣) زم الركاب : اعد المطية للركوب والسفر (٤) العمار : الجن ، بالجوالب موزمات : اي
نأتي بهم بمجرد الكلام المرتفع كأنهم مقيدون بسيور من جلد .
(٥) المصل : المسجد ، الغوارر جمع غارة (بتشديد الراء) : التي تغرر بنهرها .
(٦) اليراع المقلات : الاقلام المبرية .
(٧) لسن : لغة - اذا تعلمت المرأة الكتابة انقلبت الاقلام في ايديهن سهاماً سامة .

* عاموهن الغزل والنسج والرد ن^(١) وخلوا كتابه وقراه ؛
 فصلاة الفتاة بالحمد والاخ الاص تجزي عن يونس وبراه^(٢) .
 وما ذلك الا لان النسوان في رأي المعري لا يرجى منهن عمل يقنضي معرفتهن كل
 ذلك :

ولسن بدافعات يوم حرب ولا في غارة متشمشات^(٣) .
 ويجب ان يكون حجاب المرأة تاما فلا يدخل عليها اجنبي . ويعالي المري في وصف
 فساد المرأة وفي سوء الظن بها واتهامها :

اذا بلغ الوليد لديك عشراً فلا يدخل على الحرم^(٤) الوليدُ .
 فان خالفتي وعصيت امري فانت ، وان رزقت حجبي ، بليد .
 الا ان النساء جمال غبي بهن يضيّع الشرف التليد .
 ومع العلم بان المعري يكره الزواج فانه يوصى به للمرأة ، لان زواجها صيانة
 لها عن الزلل ، على شرط ان يكون زوجها كفواً من كل ناحية :

* وما حفظ الحريدة مثلُ بعْل تكوّن به من المتجرّات^(٥) .
 * اذا خطب الزهراء شيخ له غنى وناشىءُ عدم^(٦) آثرت من تعانق .
 وقل غنّاء عن فتاة ، وزوجها اخو هرم ، احجالها والمخانق^(٧) .

*

اما فيما يتعلق بالرجل والزواج فرأي المعري مختلف قليلاً . يجب على الرجل ان
 يكون عفيفاً مهما تكاثرت حوله المغريات وان يحفظ عليه شبابه بالعفة ليجد منه بقية
 في ايام الشيخوخة :

وصن في الشرخ نفسك عن غوان يزرن مع الكواكب معتمات .
 فقد يسري القويُّ الى مخازٍ يجنّح من سحائب مشجيات^(٨) .

١) الغزل . (٢) الحمد والاخلاص سورتان قصيرتان من سور القرآن الكريم ، ويوسف
 وبراه . سورتان طويلتان . (٣) ذوات جراءة في الحرب . (٤) النساء . (٥) تحتسى به وتمتنع به . . .
 (٦) فقير . (٧) الخلاخيل والقلائد (تلبس في الارجل والاعتناق) .
 (٨) الجنح : الليل ، مشجيات : مطرات .

وتعفف عن النساء كلهن ، مسلمات كنّ او يهوديات او نصرانيات ! او صابئة ،
فالناس كلهم في الكرامة الاجتماعية - سواء :

- وساور لديق اتراب النصارى وعينسا^(١) من يهود ومسلمات .
- ومن جاورت من حنُف^(٢) وسرب صوابي ، فليبتن مكرّمات .
- فان الناس كلهم سواء وان ذكت الحروب مضرّمات .

ويؤكد ابو العلاء النصح بالعمّة ، ثم يتجاوز ذلك الى النصح للرجل بالا يتزوج ،
ثم يحذره من عواقب الزواج ومن شر النسل ، وينفّره من بناء الاسرة اشدّ التنفير
واقبحه .

- * خصاؤك خير من زواجك حرّة فكيف اذا اصبحت زوجاً لموس .
- وان كتاب المهر فيما التمسته نظير كتاب الشاعر المتلمس^(٣) .
- فلا تُشهدن فيه الشهود ، والقه اليهم ، وعد كالبائر المتشمس^(٤) .
- * واذا الفتى كان التراب مآله فعلام تسهر امه وتربت^(٥) ؟

ولكنّ ابا العلاء يعود فيذكر انه نصح بتزويج الفتاة (اذا لم يرض اهلها
يوأدها - دفنها حية) ، فلم يجد بداً من ان يقبل بان يتزوج الرجل لتتمكن الفتاة التي
نصح لها بالزواج من ان تجد زوجاً . ولكنه يصارح الرجل في كل امره ويزين له
التشاؤم لينفّره ، وينصحه من جديد بان يتزوج - اذا لم يجد بداً من ذلك - امرأة
عقياً عاقراً :

اذا لم تكن دنياك دار اقامة فما لك تبنيها بناء مقيم .

(١) بقر الوحش (يقصد النساء الجميلات)

(٢) اللواتي هن عن الفطرة (٣) كتاب المهر : عقد الزواج ، كتاب المتلمس : رسالته
كتبها عمرو بن هند للشاعر المتلمس الى عامله بالبحرين اوهم المتلمس ان فيها جائزة له ،
والحقيقة ان فيها امرا بقتله ، وقد عرف المتلمس ما فيها والقاه في النهر .

(٤) العائر المتشمس : (الهارب) .

(٥) تربي .

ارى النسل ذنباً للفتي لا يُبقي له^(١) فلا تنكحن الدهر غير عقيم !
وعلى كل حال يجب ان يكتبني الرجل بامرأة واحدة فهي تكفيه ، فاذا تزوج
اثنين كان مضطراً الى ان « يحارب على جبهتين » ، واذا تزوج ثلاثا جاب على نفسه
البلية :

اذا كنت ذا ثنتين فاغدا محارباً
وان هن ابدين المودة والرضا
قرانك^(٢) ما بين النساء اذية
وان كنت غراً بالزمان واهله
فإذا قنع الرجل بان يتزوج واحدة فقط فليختر المهذبة الحصان (المتصونة الشريفة)
اذا وجدها ، وليختر من توافقه في السن وفي المقام الاجتماعي والثروة على الاخص :

ولا يتأهلن شيخ مقل
بمعصرة من المتنعبات^(٣)
فان الفقر عيب ، ان اضيفت
اليه السن جاء بمعظمت !
ولكن عرس ذلك بنت دهر
تجنبت الوجوه محمات^(٤)
من الشمط اغزلن بكل عود
وافنين السنين مجرمات^(٥)
ويغتفر الغنى وخطا بشب
اذا كانت قواك مسلمات
الى اخرى تجي بمؤلمات
وان ارفحت صاحبة بضر
فاجدر ان تزوع بمعمرات^(٦)
زجاج ان رفقت به والا
رأيت ضروبه متقصات

ومن حسن سياسة الرجل امرأته ان يكون له هيبه في نفسها ، فاذا ضعف امامها
واستخذى طمعت هي فيه وتنمرت عليه :

مقي يطمعن فيك يُرينَ تيهها
لاطيب مطعم متأجمات^(٧)

(١) لا ينهض منه ، لا يفقر .

(٢) جمعك بين اكثر من زوجة (٣) الفر : الجاهل ، الغريبة : الحسنة . (٤) يتأهل :
يتزوج ، مقل : فقير ، المعصر والمعصرة : التي في اول شبابها . (٥) بنت دهر : مسنة ، تجنبنت
الوجوه محمات (ارتدت عنها الوجوه عوايس) . (٦) عرفن كل الامور وعشن دهرها طويلا .
(٧) الفر : التزوج ثانية في حياة امرأته ، معمرات : نهم . . . (٨) كارهات .

- ويرفعن المقال عليك جهلاً ويُنفدن الذخائر مفرمات^(١) .
- توهمن الظنون فكنَّ ناراً لما أشعرزته متوهمات^(٢) .

ويحسن بالرجل الا يؤخذ بجبل امرأته وان يتفطن لمكائدها، بعد ان يحتاط لجميع ما يمكن ان يصل اليها من اسباب الزلل ؛ وذهب المرأة الى الحمام شر الفتن في نظر المعري :

- * ان شئت ان تحفظي من انت صاحبة له فلا تدخلي في المصر حماماً .
- * اعوذ بالله من ورهاء قائلته للزوج : اني الى الحمام احتاج .
- * وهمها في امور لو يتابعها كسرى عليها لشين الملك والتاج .

*

وبعد فما الزواج وما النسل وما حقيقةها في رأي المعري ؟ يستعرض المعري آراء الاقوام في الزواج بالاقارب والاباعد وفيما هو مشروع منه او غير مشروع فاذا به يفاجئك بقوله ان هذه كلها سواء :

- * ولقد تشابه في الظواهر مولد حلُّ النكاح ومولد بعهار^(٣) .
 - * ابوجد في الوري نفر طهاري ام الاقوام كلهم رجوس ؟
 - بنات العم تأبأها النصارى وبالاخوات اعرست الجبوس .
- بعدئذ يخلص ابو العلاء الى الكلام على الشقاء الذي يتأتى من النسل ، فلسفياً فيما يتعلق بالمنسول ، واجتماعياً فيما يتعلق بالناسل . اما المنسول فان والده سيأتي به الى دار شقاء وعذاب :

- على الوالد يجني والدٌ ولو انهم
 - يروون ابا القاهم في مؤرب
 - من العقد ضلت حله الأرباء^(٤) .
- اما الناسل فيلقى العذاب والشقاء من اولاده انفسهم وبسبب اولاده : اذى

(١) الذخائر : الاشياء الثمينة ، مفرمات : مسبات للخسارة .

(٢) توهمن شيئاً فيغضبن عليك .

(٣) العهار : الفجور .

(٤) مؤرب : عسير ، ارباء : جمع ارب : لبيب ماهر ، السمات : العلامات .

في جسمه وفي ماله وفي جاهه :

- | | |
|--|---------------------------|
| • اصابك من اذاتك بالسبات | صحبك فاستغدت بهن وُلداً |
| • بذلك عن نواب مسقيات | ومن رُزق البنين فغير ناء |
| • وارزاء يُجنن مصحات | فمن تُكل يُهاب ومن عقوق |
| • تبين في وجوه مقسات | وان تُعط الاناث فاي برّس |
| • ويلقين الخطوب ملومات | يُردن بُعولة ويردن حَلِيا |
| • فيا للنسوة المتأيمات | وقد يفقدن ازواجاً كراماً |
| • اذا امسين في المتهضات ^(١) | يلدن اعاديا ويكن عاراً |

١٢ - الزهد واعتزال الناس

اذا كان هذا رأي المعري في البشر فهل تعجب اذا زهد في الدنيا واعتزل الناس ثم

حك انت على ذلك ايضاً :

- | | |
|----------------------------------|--|
| • وقربكم يُجني همومي وادناسي | * طهارة مثلي في التباعد عنكم |
| • فابعد عن الناس تأمن شرّة الناس | * عداوة الحق اعفى من صدقتهم |
| • واوحشوني في قرب بابناسي | قد آنسوني بالبحاشي اذا بعدوا |
| • وعلمي بان العالمين هباء | * وزهدي في الخلق معرفتي بهم |
| | من اجل ذلك كره ابو العلاء الدنيا كلها : |
| • وليس يدري اخوها كيف يُحتس | * دنياك دار شرور لاسرور بها |
| • كهلال اول ليله من شهره | * قدم الفتى ومضى بغير تيمّة ^(٢) |
| • لو عاش كابد شدة من دهره | لقد استراح من الحياة وعجّل |

*

على ان كرهه للبشر واعتقاده بفساد طبيعتهم لم يحمله فقط على ان يزهد الناس في الدنيا او ان يهجو هو الدنيا في بعض لزومياته، ولكنّه زهد فعلا في الدنيا وامتنع عن

(١) المظلومات . (٢) البعث والبقاء .

جميع لذاته الجسدية والنفسية ومُتَعَمِّها الشخصية والاجتماعية . فاول خطوة عملية قام بها في سبيل ذلك انه حبس نفسه منذ عام ٤٠٠ هـ في بيته بالمعرة لا يغادره على ما مَرَّبَكَ في ترجمته . ثم اكتفى بالضروري من الطعام ، وقنع من الطعام بالعدس و ببعض الحبوب الاخرى و انواع الخضار ، ومن الحلوى بالتين والدبس و بعض الفواكه ، ومن الشراب بالماء القراح فحسب . ولذلك لم يشرب الخمر :

لو كانت الخمر خلاً ما سمحت بها لنفسي الدهر ، لا سراً ولا علناً .
فليغفر الله ، كم تطغى ما ربنا ، وربنا قد احل الطيبات لنا .
ولم يأكل شيئاً من الحيوان ولا شيئاً نتج من الحيوان فلا اللحم ولا اللبن ولا البيض ولا العسل ولا السمك :

فلا تأكلن ما اخرج البحر ظالماً ولا تبغ قوتاً من غريز الدبائح^(١)
ولا بيض اموات ارادت صريحه لاطفالها دون الغواني الصرائح^(٢) ؛
ولا تفجعن الطير وهي غوافل بما وضعت فالظلم شر القبائح .
ودع ضرب^(٣) النحل الذي بكرت له كواسب من ازهار نبت فوائح .
فا احزرتة كي يكون اغيها ولا جمعتة للندى والمنائح .
مسحت يدي من كل هذا فليتي اربت لشأني قبل شيب المسائح^(٤) !

وقد وُصف له اللحم في حال من احوال مرضه فلم يقبل اكله .
وكذلك كان قليل الاهتمام بزيه يلبس ثياباً بسيطة من القطن الخام لا مصبوغاً ولا مزينا ولا ملونا ، وكان لا يدخن بعبطور . وربما ضيق على نفسه فلم يلبس الصوف في الشتاء ولم يشعل ناراً . ولم يل المعري الى نحو من امور الدنيا قط ، فلا اراد ان يجمع . الا ولا ان ينال جاهها ولا مجدداً ولا ملكاً :

* من مذهبي الا اشد بفضة قدحي ولا اصغي لشرب . عوج^(٥) ؟
لكن اقضي مدتي بتقنع يغني ، وافرح باليسير الاروج .
هذا ولست اود اني قائم بالملك في ثوبي اغر متوج .

ومن كان على هذه السرعة في الحياة فاخلق به الا يقبل على الزواج ابداً، والاي رغب في النسل :

- واذا افتركت فما يهيج تفكري فيما اكابد غير لوم الناجل^(١) .
 - وارحت اولادي فهم في نعمة الـ ٠٠٠ عدم التي فضلت نعيم العاجل^(٢) .
 - ولو انهم ظهروا لعانوا شدة ترميهم في متلفات هواجل^(٣) .
- فاذا وصل ابو العلاء الى هنا اراد من الناس كلهم ان يفعلوا ذلك :
- لو ان كل نفوس الناس رائية^(٤) كراي نفسي تناهت عن خزاياها .
 - وطلقوا هذه الدنيا فما ولدوا ولا اقتنوا، واستراحوا من رزاياها .
- بل هو اشد تطرفاً من هذا ايضاً : هو يريد ان يكون آدم نفسه قد طلق حواء ، وان البشر لم يكونوا موجودين :
- وكان ابناء الذين هم الذري اعفاء اهل لا اقول مهار^(٥) .
 - ياليت آدم كان طلق امهم او كان حرماً علي ظهار^(٥) .
- ان وجود البشر هو اساس الشقاء ، ولا يمكن ان يزول هذا الشقاء بالاصلاح ، وانما يزول فقط اذا امحى النسل البشري من الارض :
- هل يغسل الناس عن وجهه الثرى مطر ؟
- فما بقوا لم يبارح وجهه دنس !
- والارض ليس برجوت^(٦) ظهارتها الا اذا زال عن آفاقها الازس .
- تناسلوا فما شر بنسلهم ؟ وكم فجور اذا شبانهم عنسوا !

١٣ - الجسد والروح : اصلهما ومصيرهما

لم يختلف الفلاسفة ولا العلماء ولا الفقهاء في ان الانسان مؤلف من مادة هي جسمه ، ومن « معني زائد على الجسمية » هي عند الفلاسفة « نفس » وعند العلماء

-
- (١) الذي يولد له اولاد . (٢) نعيم العاجل : نعيم الدنيا . (٣) هواجل : صحارى .
 - (٤) كأن ابناء الذين نعدم اشرافا حمير ، ولا يستحقون ان يسموا مهارا (اولاد الخيل) .
 - (٥) الظهار : ان يجرم الزوج على نفسه قرب امرأته .

« قوة تفاعل كيمايوي » وعند الفقهاء « روح » . واذا كان الجميع قد اتفقوا بعض الاتفاق على « حقيقة الجسد واصله ومصيره » ، فانهم لم يتفقوا بعد على هذا « المعنى الزائد على الجسمية ، والذي به وحده يكون الانسان - عندهم جميعهم - انساناً » .

ويرى ابو العلاء مع الفلاسفة والعلماء والفقهاء ان هذا الجسد من تراب ، وان عناصره ليست الا تلك العناصر الموجودة في الطبيعة ؛ والتي منها سائر الاشياء ، الانسان وغير الانسان :

ترابُ جسمونا ، وهي الترابُ ، اذا وآى عن الآل اغتراب^(١) .
تألفُ اربعُ فينا فتُذكى بها منا ضغائنُ واحتراب^(٢) .

ولا يرى ابو العلاء بأساً في الاعتقاد بآدم وحواء ما دام يرمز بهما الى ابتداء وجود الانسان ، بما هو انسان ، على وجه هذه الارض ؛ ولكنه ينكر ان يكون « آدم هذا » قريب العهد منا على ما تُخيلُهُ التواريخ الموضوعه :

* خالق لا يُشكّ فيه قديم وزمان على الانام تقادم .
* جائز ان يكون آدمُ هذا قبله آدمٌ على إثر آدم .
* * وولد هذى الشمس اعياك حدهُ وخبر اب انه متقادمُ .
* وما آدمُ في مذهب العقل واحداً ولكنه عند القياس اوادم .

وهنا يستعرض المعري بعض الآراء الافلاطونية الحديثة في الجسم والروح وفي الصلة بينهما قبل ان يتجدا في هذا العالم ، وتلاحظ ان ابا العلاء يعرض هذه عرضاً فيه شيء من التهكم :

* والجسم لا شك ارضي وقد وُصلت به لطائف^(٣) عالاها .عاليها .
فقيل جاءته من ارض على كتب وقيل خرت اليه من اعاليها .
والله يقدر ان تُدعى - بحكمه - اوآخر من براياه اواليها .

(١) تهدأ جسمونا اذا فارقتها الحياة . (٢) تألف - تتألف ، اربع : العناصر الاربعة

(الطبايع الاربعة) .

(٣) يقصد الروح

* الجسم والروح من قبل اجتماعهما كانا وديعين لا هماً ولا سقماً .
تفرّد الشيء خيراً من تأنّفه بغيره ؛ وتجر الألفه النّقماً .
وإذا عرف المعري ماهية الجسم فإنه لم يستطع ان يعرف ماهية الروح
فيرمز اليها على ما كان شائعاً في زمنه :

الروح طائرٌ مُجَبَسٌ في سجنه حتى يئنّ رداه بالاطلاق^(١)
واخيراً يفترق الجسم والروح بالموت . ولكن ما الموت وما سببه وكيف يأتي ؟
كل ذلك سر لا يستطيع المعري ان يصل الى كنهه :

اما الصحاب فقد مروا ما عادوا وبيننا بلقاء الموت ميعاد .
سر قديم وامر غير متّضح ؛ فهل على كشفنا للحق اسعاد^(٢) ؟
سيران ضدان من روح ووهن جسد : هذا هبوط ، وهذا فيه إصعاد .
أخذ المنايا سوانا وهي تاركة قبيلنا عظة منها وايعاد^(٣) .
ولكنه يعلم ان هنالك سبباً يفرق بين الروح والجسد ، وان هذا السبب هو احد
الحوادث التي تتفق للبشر ؛ وهذه الحوادث « ايام حسوم » كما يقول ابو العلاء ، اي ايام
شؤم على الجسد :

يفرق بين الشخص والروح حادث ؛ ألا إن ايام الفراق حُسوم .
الى العالم العلوي تُرمع رحلة نفوس ، وتبقى في التراب حُسوم .
وفي كثير من اللزوميات « يورد » ابو العلاء رأي الافلاطونيين المحدثين ، ذلك
الرأي الذي شاع في ايامه ، وهو ان النفس اذا فارقت الجسد « صعدت » الى الملاء
الاعلى . واكتنك اذا سألت المعري رأيه الخالص فإنه يعلن بكل صراحة انه لا يعرف
مصير الروح ولا يمكن لاحد ان يعرفه :

* اما الحُسوم فللتراب مصيرها ، وعيّت بالارواح أنّى تسلك .
* دفنّاهم في الارض دفن تيقن ولا علم بالارواح غير ظنون .
وروم الفتى ما قد طوى الله علمه يُعدّ جنوناً او شبيهه جنون !

(١) الى ان يطلق الموت الروح من الجسم الذي هو سجنها .
(٢) هل يستطيع احد ان يساعدنا على الوصول الى الحقيقة ؟ (٣) محي الموت على غيرنا
وتركنا نحن عبرة لنا وتحديد معاً بانه سيأتي علينا ايضاً .

بعدئذ يرى المعري ان الفلاسفة انفسهم مختلفون في امر الروح ، وكذلك اصحاب
الاديان . واكنه يعتقد على كل حال ان القوم ايضاً لا يعرفون من امر الروح شيئاً ،
الا انهم يجتالون ، بما يزيّفونه من القول فيها ، على كسب معاشهم :

مر الزمان فاضحى في الثرى جسدٌ ، فهل تملّى رجال بالملوات ؟ (١)
والروح ارضية في رأي طائفة ، وعند قوم ترقى في السموات ،
تمضي ، على هيئة الشخص الذي سكنت فيه ، الى دار نعيمى او شقاوات .
وكونها في طريح الجيم احوجها الى ملابس ، عتتها ، واقوات .
وقدرة الله حق ، ليس يعجزها حشر خلقت ولا بعث لاموات .
فاعجب لعلوية الاجرام صامته ، فيما يقال ، ومنها ذات اصوات .
ولا تطيعن قوماً ما دياتهم الا احتيال على كسب الاتوات .
وانما حمل التوراة قارئها كسب الفوائد لا حب التلاوات .

والفلاسفة الطبيعيون يقولون ان الروح تهلك كما يهلك الجسد سواء بسواء . اما
الفلاسفة الالهيون فيقولون انها تبقى بعد موت الجسد ؛ وكلا الخالين مستغرب في رأي
المعري قليل الاهمية بالاضافة الى الايمان الحقيقي والدين الصحيح الذي هو انصاف الناس
وحب الخير ؛ اما الجدال في هلاك الروح وخلودها فأمر لا قيمة له :

ان يصحب الروح عقلي بعد مظهرها ، للهوت ، عني فأجدر ان ترى عجباً .
وان مضت في الهواء الرحب هالكته هلاك جسمي في تربتي فواشجبا (٢) .
الدين انصافك الاقوام كأنهم وأي دين لا يبي الحق إن وجبنا ؟

ان الرجل الذي يقف بمثل هذا التساؤل والتجاهل امام اوجه الحياة ، ويعمان شكه
(الفلسفي) في النفس ذاتها ، لا يمكن ان يتقبل الخلود على الشكل الذي ورد
في الاديان ، ولا ان يأخذ بالحشر والنشور . على ان هنالك امراً مهماً جداً ، هو ان
المعري لم يقلن : « ليس ثمة آخرة ولا خلود » ، ولو فعل ذلك لما كان فيلسوفاً ولا

(١) الملاوة : البرهة من الدهر ، تملّى استمتع (ما قيحة الحياة التي عاشها الميت في الدنيا .

بالاضافة الى الميت نفسه ؟)

(٢) واحربا ، وأسفا !

حكيمًا ولا عالمًا ، ولكنه كان يقول : « ليس لدي ولا لدى غيري برهان على ان هنالك حياة ثانية بعد الموت » .

ويزعم قوم ان هذا « التجاهل » عند المعري يمكن ان يكون « جهلاً » ، وان المعري لا يدري فعلاً فيما اذا كان هنالك خلود او لم يكن . اجل ، ولكن هذا الذي نعهده نحن تجاهلاً هو في الحقيقة « انكار » صريح . اعتبر قبل كل شيء . ان المعري مسلم ، وان الاسلام جعل التصديق باليوم الآخر كناً من ارکان الايمان ؛ ثم يأتي المعري ويقول :

خذ المرآة واستخبر نجومها تمر بمطعم الاربي المشور^(١) .

تدل على الحيام بلا ارتياب ، ولكن لا تدل على النشور^(٢) !

فهل يدل هذا على ان المعري يعتقد بالآخرة على ما اراده الاسلام ، او على ارادته النصرانية او غيرها مثلاً ؟ وهل تستطيع ان تعد اقواله هذه انتصاراً لعقيدة الخلود او حملاً عليها وتشكيكاً (فلسفياً) فيها ؟

قد لا تكون نفضت يدك بعد من حسن ظن المعري في الآخرة فأقرأ معي على

مهل هذه الايات :

كل ذكّر من بعده نسيانٌ وتغيب الآثار والاعيان^(٣) .

انما هذه الحياة عناء ؛ فليخبرك عن اذاها العيان^(٤) .

ما يمسّ التراب ثقلاً اذا ديس . . . س ، ولا الماء يتعبه الجريان .

نفس بعد مثله يتقضّى فتمرّ الدهور والاحيان .

قد ترامت الى الفساد البرايا واستوت في الضلالة الاديان ا

ثم اقرأ هذين البيتين ايضاً :

ضحكتنا ، وكان الضحك منا سفاهة ، وحقّ لسكان البرية ان يبكوا .

يحطمانا ريب الزمان كأننا زجاج ولكن لا يعاد له سبك .

(١) الاربي : العسل ، المشور اسم مفعول من شار العسل : جناه وقطفه (يعني : يصبح

العسل مرا بفحك) . (٢) الحام : الموت ، النشور : الخروج من القبور . (٣) العيان : الشيء

نفسه ، الاثر : العلامة التي تبقى بعد العيان . (٤) المشاهدة .

على ان ابا العلاء يورد ابياتاً تميل بالقارىء السطحي الى ان حكيم المعرة يؤمن بالآخرة وبالخلود . ولقد اغتر بتلك الابيات كثيرون ، ولكن لو قرأوها بانعام نظر واعتبروا الاحوال التي يوردها المعري فيها والابيات التي يوردها معها لتغير رأيهم تماماً .
وها انا مورد لزومية واحدة لا يشك الانسان العادي في انها انتصار لعقيدة البعث والخلود :

تقواك زاد ، فاعتقد انه افضل ما اودعته في السقاء^(١) .
آه غداً من عرق نازل . وههجة مؤامة بارتقاء .
ثوبي محتاج الى غاسل . وليت قلبي مثله في النقاء .
موت يسير معه رحمة خير من اليسر وطول البقاء .
وقد بلونا العيش اطواره فما وجدنا فيه غير الشقاء .
تقدم الناس فيما شوقنا الى اتباع الاهل والاصدقاء .
ما اطيّب الموت لشرا به

ولكن هل تعرف ما الشطر المحذوف من هذه اللزومية الكاملة ؟
انه :

..... إن صحّ للأمواتِ وشكُّ الأتقاء !

الى الآن لا يزال المعري يتكلم رمزاً او ما يشبه الرمز ، فهل اعلن شيئاً من اعتقاده في الآخرة وفي البعث خاصة اعلاناً ايجابياً ؟ لقد فعل ذلك في ا.ا كن اظهر فيها ان هذا الدهر خالد وحده ، وان موت الانسان نوم ابدى او نوم طويل جداً :

وكم نزل القيل^(٢) عن منبر فعاد الى عنصر في الثرى !
ونومي موت قريب النشور وموتي نوم طويل الكرى .
تزل كما زال آباؤنا ويبقى الزمان على ما ترى :
نهار يضي . وليل يجي . ونجم يغور ونجم يبرى .

(١) افضل ما ادخرته .

(٢) الملك .

ثم تأمله يقول انه يعرف الليل والصباح ويعرف الحر والبرد ويعرف البيت والقبر
واما ما سوى ذلك فلا يمكن ان يعرفه هو ولا ان يعرفه احد غيره :

* مالي بما بعد الردى مخبره ، قد ادمت الازنف هذه الأبره^(١) :

الليل والاصباح والقيظ وال ابراد والمنزل والمقبره .

كم رام سبر الامر من قبلنا ؛ فنادت القُدرة : لن تسبره^(٢) !

* زعموا انني سارجع سرخاً كيف لي ، وكيف لي ، وهذا التلمي .

وازور الجِنان احبر فيسا بعد طول الممود في الارماس .

تفظن لكلمة زعموا !

واذا كان قد بقي في نفسك شيء من الشك في ان المعري كان ينكر خلود
النفس وينكر البعث فتعال معي الى باب آخر من اللزومات : الى آراء المعري في
الموت ، والى امنيته التي يصبو دائماً الى ان تتحقق : هو يرى الموت راحة من الحياة ،
والعدم اجل من النعيم ، وان همود الجسد وسكونه في التراب بعد العناء الذي لاقاه في
الدنيا هو الراحة الحقيقية وهو الحقيقة الواقعة :

* بني الدهر ، مهلا ان ذممت فعالكم فاني بنفسي لا محالة ابدأ .

متى يتقضى الوقت ، والله قادر ، فنسكن في هذا التراب ونهدأ ؟

تجاوز هذا الجسم والروح برهة فما برحت تأذى بذلك وتصدأ .

* لو صح ما قال رسطاليس من قديم ان لم يكن في سماء فوقنا بشر

كم حل حيث تبني الحبي من امم فليس في الارض او ما تحتها ملك .

ثم انقضوا وسبيلا واحداً سلكوا ان تسأل العقل لأيوجدك من خبر

عن الاوائل الا انهم هلكوا .

ويتبع الكلام على النفس الكلام على التناسخ : انتقال النفس من شخص الى
آخر او نقلها في اشخاص الحيوان والنبات ؛ وكان المعري لا يؤمن بالتناسخ البتة ؛ وكان
يتكلم على من يقول به :

(١) البرة : حلقة توضع في انف الحيوان ليحجر بها . (٢) سبره : نحس باطنه (سبر الجرح :

امتحن عمقه بالمسبار) .

- يقولون : ان الجسم ينقل روحه الى غيره حتى يهذبوا النقل .
فلا تقبلن ما يخبرونك ضلالة .
وليس جسوم كالنخيل وان سما بها الفرع الامثلامنبت البقل^(١) .

وينتقد المعري رأي النصيرية الذين يقولون بان روح الانسان تنتقل الى غير الانسان كالنبات مثلاً :

- يا آكل التفاح لا تبعدن ولا يقيم يوم ردى ناكلك .
قال النصيري ، وما قلت ، فاسمع وشجع في الوغى ناكلك^(٢) :
قد كنت في دهرك تفاعه ، وكان تفاحك ذا آكلك !

والمعري يرفض التناسخ رفضاً شديداً وينتقد في رسالة الغفران اعتقاد اهل الهند ويقول : ان هذا القول « قد كثر في جماعة من الشيعة ، نسأل الله التوفيق والكفاية » ، ثم يجري على لسان رجل من النصيرية :

- اعجبي امننا اصرف الليالي جُعلت اختنا سَكينة فاره .
فزجري هذه السنانير عنها واتركها وما تضم الغراره^(٣) .
وما هذا كنه الامزعم من مزاعمهم كقولهم ايضاً في التقمص خاصة :
وقد زعموا هذي النفوس بواقيا تشكّل في اجسامها وتهذب .
وتنقل منها فالسعيد مكرم بما هو لاق والشقي مشذب .

وكما ان المعري لا يؤمن بالتناسخ فانه ايضاً لا يعتقد بالرجعة ، وهي ان الانسان يعود الى الحياة بعد موته بزمان قليل . والفرق بين التناسخ والرجعة ان التناسخ « هو استمرار النفس في الدنيا ولكن في اجسام مختلفة » ، اما الرجعة فهي رجوع النفس بعد امد من موتها في جسدها . والازومية الآتية رفض صريح لهذا المذهب :

* اسير فلا اعود ، وما رجوعي اذا كان الرحيل رحيل قال !^(١)

(١) اي ينبت ويبقى موساً ثم يذوي ، فينبت غيره وهلمجرا . (٢) الناكل : الجبان الذي يريد الرجوع عما اقدم عليه . (٣) السنور : الهر ، القرارة : وعاء للحبوب .
(١) التالي : المبعض :

- * صاح ، ما تضحك البروق شتاتاً
يا محلي عليك مني سلام ،
ليت شعري عنن يحلك بعدي ؟
أترجون ان اعود اليكم ؟
ولجسمي الى التراب هبوط ؛
وعلى حالها تدوم الليالي ،
* متى انساني هذا التراب مغيب
اسير عن الدنيا ولست بعائد
- بجهم ولا تبكي العود .
سوف امضي وينجز الموعود .
أقيام لصالح ام قعود ؟
لا ترجوا ، فانني لا اعود .
ولروحي الى الهواء صعود .
فنحوس لمعشر او سعود !
فاصبح لا يُجني علي ولا اجني .
اليها ؛ وهل يرتد قطر الى دجن؟^(١)

ومن كان على ما ذكرناه من رفض خلود النفس وانكار البعث وطب الراحة في الموت واستحسان العدم ، كان خليفاً ألا يهتم بالجسد اذا فارقت روحه . ولذلك كان ابو العلاء ينكر على الذين يُعنون بدفن الجسد وتكفينه واقامة المعالم على القبور . وكان يتمنى ان يترك جسده بعد موته بالعرأ :

- * سافعل خيراً ما حياتُ فلا تُرقم علي صلاة يوم اصبح هالكا .
* ومن ضمه جدث لم يُبيل^(٢) علي ما افاد ولا اقتني .
يصير تراباً ، سواء عليه مسُ الحرير وطعن القنا .

وانظر الآن الى تشبيهه البدن اذا فارقت روحه بالظفر الذي يُقَام فلا يألم الجسد له ، وكيف انه يود ألا يدفن اذا مات :

- الاكذاك اذا ما فارق الزوجا
يظل فيهن سر القوم مشروحا .
فجاء من بات عند اللب مجروحا .
فجنبتاني ملحوداً ومضروحا^(٣) .
فعاذراتي بظهر الارض مطروحا .
- قلمت ظفري تارات ، وما جسدي
وممن تأمل اقوالي رأى جملأ
قد ادعيتم ، فقلنا : اين شاهدكم ؟
ان صح تعذيب ريس من يجل به
الوحش والطير اولى ان تنازعني

(١) هل يمكن للمطر ان يعود الى السحاب ؟

(٢) لم يبيل

(٣) اللحد او الضريح القبر

ويستحسن المعري طريقة اهل الهند في تحريق الموتى ويفضلها على الدفن فهي خير لليت فلا تعبث به السباع ولا يُيشى من نبشه . ثم ان الحرق يمنع فساد الجو حول المدافن :

- فاعجب لتحريق اهل الهند ميتتهم . وذلك اروح من طول التبريح (١) .
- ان حرقوه فما يُخشون من ضُبع تسري اليه ولا خفي وتطريح (٢) .
- والنار اطيب من كافور ميتنا غباً واذهب للنكراء والريح (٣) .

١٤ - فلسفة الاغراق

ليست الاخلاق عند المعري مصانعة الناس ولكنها ذاتية في اعمال البشر ؛ فالمرء يجب ان يفعل الخير لان فعل الخير نفسه جميل ، لا لانه يرجو عليه ثوابه او يُيشى من الاضرار عنه عقاباً . فهو من اجل ذلك مثالي النظر الى الاخلاق لا سفسطائياً يلبس لكل حالة لبوسها ، ولا مادياً يرجو المنفعة . والمعري لا يرى فرقاً بين الاخلاق وبين الدين :

- * والظلم عندي قبيح لا اجوزه ؛ ولو أُطعتُ لما فاءوا باجلاب .
- * فاوصيكم اما قبيحاً فجانبوا ، واما جميلاً من فعلوا فلا تقلموا .
- * واذا تساوى في القبيح فعالنا فن التقي وأينما الكفار ؟
- * فلتفعل النفسُ الجميل لانه خير واحسن ، لا لاجل ثوابها .
- * وما سرني اني اصبتُ .عاشراً بظلم واني في النعيم مخلدٌ .

١٥ - الفلسفة الطبيعية

في اللزوميات آراء كثيرة تتعلق بالطبيعة (اذا اعتبرنا اقسام الطبيعيات كما اعتبرها معاصر المعري الشيخ الرئيس ابن سينا المتوفي عام ٤٢٨ هـ) من المادة والزمان والمكان والحركة والفلك والعناصر الاربعة وما الى ذلك ؛ ونحن المعري

(١) اروح من طول التبريح : اقل تعرضاً للعذاب . (٢) خفي : نبش ، تطريح : بعثرة (؟) . (٣) الكافور : طيب يوضع في اكفان الموتى تقليباً على فساد رائحتهم ، الغب : العاقبة والنتيجة ، النكراء : ما يسيل من الميت .

استعرض هذه الآراء استعراضاً ثم قبل بعضها وصرّف ما قبله في اغراضه المختلفة .
الا اننا لا نعد ذلك فلسفة لسبيين : اولها ان الامام بالمعلومات لا يجعل من الملم بها عالماً ؛ وثانيهما ان المعري لم يقصد استنفاد اوجه هذا الفن كما حاول ذلك عند الكلام على المرأة وعلى النفس مثلاً .

١٦ — مدى الأثر الاجنبي في فلسفة المعري

كنت قد شغلت نفسي منذ بضع سنوات بتحديد النظر في اللزوميات تتبعاً للآراء التي يمكن ان ترجع الى مصدر اجنبي . ولقد عثرت على آراء كثيرة يونانية او هندية او صينية لا شك في ذلك . ولكن لما حاولت ان انظم هذه الآراء في سلك ما ، او ان استخرج منها صورة صحيحة او شبه صحيحة ، اعيايت ما اردت . ولقد وضع لي من الموازنة بين هذه الآراء وبين المذاهب الفلسفية الاجنبية التي يظن ان هذه الآراء اخذت منها ، ان المطابقة مفقودة ، وان المشابهة ايضا عارضة . ومع الايقان بان كثيراً من الاقوال المتعلقة في النفس والمبسوثة في اللزوميات افلاطونية جديدة ، فان المعري لم يجعل هذه الفلسفة موضوع درس خاص ، وانما اخذ منها ما كان شائعاً في ايامه فقبل بعضه ونقض بعضه . وكذلك اخذ باقوال تخالف قول الافلاطونية الجديدة .

وكذلك نرى اقوال المعري في فساد الطبيعة البشرية توافق رأي الفيلسوف الصيني سونتزه الذي قال بان الطبيعة البشرية فاسدة من اساسها غير ظاهرة . ولا ريب ايضاً في ان آراء المعري في مصدر النفس ومصيرها عظيم الشبه بقول كونفوشيوس حكيم الصين الكبير : « اذا كنا قليلي المعرفة بانفسنا او بما نحن عليه ، فكيف نستطيع ان نصل الى معرفة ما كنا فيه او ما سنصير اليه » ولكنك لا تقدر ان تنسب هذا الى التوفر على الفلسفة الصينية ؛ لان مثل هذه الآراء يمكن ان تخطر لافراد لم ير بعضهم بعضاً ولا سمع بعضهم ببعض ، وخصوصاً اذا ادركنا انها في لزوميات المعري آراء متفرقة لا يجمعها نظام خاص ولا هي خالصة من التأثير بمذاهب اخرى .

وليس من دارس ينكر ان لزوميات ابي العلاء شديدة التلون بالآراء الهندية الى درجة المطابقة ، وخصوصاً فيما يتعلق بالزهد وبرحمة الحيوان وبفلسفة العدم وبانكار

النبوت والبعث . ولكن هذه ايضا لا يمكن ان تنتظم في سلك يرجع الى مذهب هندي بعينه ؛ وانما هي آراء من مذاهب الهند اخذها المعري متفرقة لانه استحسنها في احوال مختلفة ؛ ولم يأخذسواها لانه لم يتفق له فيما اظن من الاحوال مادعاه الى اخذها . واكبر الظن ان المعري لم يطلع على المذاهب الفلسفية تامة ولا شغل نفسه باستيعاب تفاصيلها ولا بالتمييز بينها ، وانما كان يأخذ ما يستحسنه مما تصل اليه معرفته عن طريق الرجال في الغالب او عن طريق الكتب . وهبه اطلع على تلك المذاهب تامة وعرفها عن طريق مصادرها الصحيحة ، فان عبقرية المعري انما كانت في التحليل والنقد لا في الانشاء والتنظيم .

من اجل ذلك نستطيع ان نقول ان ابا العلاء تأثر بآراء اجنبية كثيرة تفرقت في لزومياته ، ولكنه في الوقت نفسه لم يعتنق مذهباً بعينه ولا استرقتة فلسفة ما ، بل ظل حراً طليق الارادة يختار من كل ما عرفه ما يستحسنه ثم يضيفه الى ما خبره في بيئته وما تنجر في نفسه ، حتى وهبنا هذه النظرات الصائبة وتلك الآراء والافكار التي تفتح امام دارس اللزوميات آفاقاً من التفكير الحر ، ومن الاندفاع للبحث عن الحقيقة ، ومن الجرأة في اعلان الحق .

١٧ - المعري والمذهب الدرزي خاصه

رأينا المعري عموماً يهاجم الاديان والمذاهب وخصوصاً المذاهب الباطنية ، ولكننا نرى في بعض آرائه شهباً غريباً لما جاء في المذهب الدرزي . وليس بعجيب ان يعرض المعري لبعض العقائد الدرزية بالاستحسان او النقد ، ولا ان يظهر أثرها عليه ، فالمعري كما رأينا عاصر الدعوة الدرزية في إبانها . واذا علمنا ان المعري من بني تنوخ وان جميع التنوخيين ، او اكثرهم ، استجابوا للدعوة الدرزية ، وان شمالي سورية كانت من ميادين تلك الدعوة ، لم يستغرب احد اذا رأى هذا الفصل في هذا الكتاب ، بل ربما تساءل عن فقدانه .

على انني احب ان انبئه هنا على امرين تنبيهاً خاصاً : اولهما ان المعري لم يعتنق مذهباً بعينه ولا قبل من كل دين كل شيء فيه ؛ ان خصائص المعري ومادة فلسفته تدلنا على ذلك دلالة لا يبقى معها مجال للتردد . وثاني الامر ان المذهب الدرزي مضمون به على غير اهله وعلى غير الاتقياء من اهله ايضاً . ولا سبيل الى الوصول الى دقائقه ، حتى ان احدنا لو وصل الى كتاب من كتبهم لما استطاع ان يحل رموزه ، ولا ان يفهم من الكلمات المدونة ما يعنونه هم حينما يلقنونها « المتصلين بالدين » تلقيناً شفهيّاً وعلى درجات متفاوتة من الشمول ومن العمق . ولكن هنالك امور عرفت عن المذهب الدرزي من مصادر مختلفة ، واجمعت تلك المصادر عليها ، وصدقها المشاهدات ، واكدها الاحتكاك الشخصي . ثم ان الدرزي انفسهم ، وان ضنوا بالعقيدة ، لا يرون بأساً في عرفان بعض اوجه المذهب الفلسفية والاجتماعية . وهذه هي موضوع هذا الفصل المعقود هنا .

وللمعري آراء تناقض المذهب الدرزي ، فانه لما انكر عقيدة التناسخ جملة واحدة انكر بطبيعة الحال عقيدة التقمص ؛ وكذلك رفض المعري رؤساء المذاهب وقال بالفناء والعدم مما يناقض ما ارادة الدرزي من التقمص لاستمرار البشر على هذه الارض ولتقليبهم في « الاقصه الانسانية » المختلفة ليصلوا الى يوم القيامة اظهاراً ابراراً . ثم ان المعري ترك الزواج ودعا الى قطع النسل لمحو البشر من الارض . ومع ان العقيدة الدرزية لا تجعل الزواج متمتعاً ، ولا تريد من الدرزي المتدين ان يكثر اولاده وخصوصاً اذا كان فقيراً ، فانها اوجبت الزواج وامرت بالاعتدال في النسل لحفظ النوع البشري على هذه الارض . ثم ان ابا العلاء تحامل على المرأة وظلمها حقها وبالغ في طلب الحجب عليها مع ان العقيدة الدرزية تجعل انصاف المرأة في كل شيء اصلاً من اصول المذهب . من الاصول الكبرى التي يخالف فيها المعري المذهب الدرزي قوله بالحجب فقد حمله تشاؤمه على ان يرى الانسان مقيداً بكل ما يأتيه ، وان كان هو يتساءل عن الحكمة من هذا « الحجب » ، بينما العقيدة الدرزية تقوم في هذه الناحية على « الاختيار » المطلق ويرى الدرزي ان « الخلق مخيرون وموقوفون بعد هنيهة للعرض والحساب والجزا » .

ولكنك اذا انعمت النظر في لزوميات المعري خاصة تراه يوافق الدرّوز في اشياء كثيرة تعيا على الحصر . من ذلك ان المعري ، كما مر بك ، من تنوخ ؛ ثم انه اتصل بالدعاة ، لا ريب في ذلك ، بدليل ما ذكر عنهم . واذا علمنا ان الدعوة الدرزية كانت في ذلك الحين مستطيلة . من طبرية الى انطاكية ، لم نستغرب ان يكون المعري قد احتك بالذين استجابوا اليها .

ومن ذلك ان المعري يتعرض ظاهراً للشرائع تعرضاً ويعتقد ان مصدرها ارضي لا سماوي ، وانها من اجل ذلك ناقصة ؛ وهو اذا تعرض لاصحاب الاديان انتقدهم وانتقد كثيراً مما يظنه اتباعهم فيهم ؛ ولقد ساوى بينهم كلهم في المرتبة :

- * لا تبدأوني بالعداوة منكمُ
- * ويسعجني دأبُ الذين ترهبوا
- * وما حبس النفسَ المسيحَ ترهباً
- فسيحكم عندي نظير محمد .
- سوى الكلهم مال النفوس الشجائح .
- ولكن مشى في الارض مشية سائح .

وكذلك انتقد المعري نظام الارث في الاسلام :
والأمُّ بالسُدس عادت ، وهي أرفُ من بنت لها النصف او عرس لها الرُبُعُ .
وهو يفضل ايضاً العمل الصالح على الفروض الدينية كما ان المذهب الدرزي «يفضل عمل الخَيْر على اداء الفروض في اوقاتها» .

وللمعري في الخلق وفي آدم خاصة آراء لها شبه غريب بما جاء في العقيدة الدرزية عن ابي البشر كقوله الذي مر بك :

وما آدمُ في مذهب العقل واحداً ولكنه عند القياس اوادم .
وربما كان اعجب ما في الامر ذكره العقل على وجه مخصوص يحملك على التساؤل
عن هذا التوافق الغريب بين رأيه ورأي بين الدرّوز . قال المعري :

كذب الظن « لا امام سوى العقول . . . ل » مشيراً في صبحه والمساء .
فاذا تأملت لفظة « امام » مع لفظة « عقل » في هذا التركيب الغريب بجانب قوله :
« في صبحه والمساء » ، وعلمت ان اعلى مراتب الدرّوز الحاضرة رتبة « شيخ العقل »
وان لهذه الكلمة « عقل » عندهم معنى خاصاً وان « الصبح والمساء » يمكن ان يكونا

« أول الدهر وآخره » ، إذا فعلت هذا كله ثم استنتجت لنفسك من ذلك كله ان «الامام» هو «العقل» او انه يلقب « بالعقل » حرّت في تعليل ما يتوالى امام محيلتك من الافتراضات .

ثم اذا انت قلبت الازوميات ورسالة الغفران ووقفت امام انتقاده المر على التناسخ عند النصيرية وكنت تعلم من التاريخ ان شمالي سورية كان ميدان تنافس ومحل نزاع بين المذهب الدرزي والمذهب النصيري ، وان العداء استحکم بين دعاة المذهبين ، زادت حيرتك في ما انت بسبيله ، فاذا اضفت الى جميع ما مر معك ان المعري كان يأخذ بالتقية الشديدة ويستحسنها ويأمر بها ، وان الزمن كان في اواخر ايامه زمن اضطهاد شديد ومحنة لاتباع هذا المذهب ، قام بها الظاهر بن الحاكم بامر الله نفسه - لانه كان على ما يظهر لا يرى رأي الدرّوز في ابيه ^(١) - وخصوصاً في شمالي سورية وحول انطاكية على الاخص ، زادت حيرتك في كل ذلك اضعافاً مضاعفة .

على انني لا اريد ان اترك البحث معلقاً ، بل اود ان اجلوه بهذه الكلمة : ليس لدينا دليل الجايي على ان المعري استجاب للدعوة الدرزية ، بل لدينا في لزومياته ادلة قاطعة على انه كان يهاجم المذهب الدرزي حينما يرفض التناسخ والتقمص ^(٢) :

* ما عاش جسمان في الدنيا بواحدة	من النفوس ولا النفسان في الجسد!
* يقولون ان الجسم ينقلُ روحه	الى غيرها حتى يهذبها النقل .
فلا تقبلان ما يخبرونك ضله	اذا لم يؤيد ما اتوك به العقل .
* وقد زعموا هذه النفوس بواقياً	تشكّل في اجسامها وتُهدبُ ،
وتنقل منها فالسعيد مكرم	بما هو لاقٍ والشقي مُشدب .

وحمل على المرأة تلك الحملة الشعواء ودعا الى الحجر عليها والى تركها جاهلة او

(١) تذكر كتب التاريخ ان الظاهر هو ابن الحاكم بامر الله ، ولكن الدرّوز يرون

غير ذلك .

(٢) التناسخ نقب الروح الواحدة في اجسام متعددة من انسان او جيم او نبات ، واما

التقمص فتقلها في البشر فقط .

كالجاهلة بينما تعلم المرأة عند الدرور فرض ؛ ودعا الى ترك النسل . ولكن المعري الذي احتك بالدعاة الدرور والمستجيبين الي الدعاة الدرور تأثر بهم خيراً وشرأ ، واستحسن بعض آرائهم ورفض بعضها . ومع ان موقفه من المذهب الدرزي لا يختلف من موقفه من المذاهب الاخرى ، فانه هنا اشد بروزاً ، وادعى احياناً الى التساؤل والدهشة .

١٨ - أثر المعري في الشرق والغرب

ان اعتزال ابي العلاء في المعرفة لم يمنع آراءه من ان تتخطى الحدود وتتخطى الدهور . وارى ان اكلم على ثلاثة فقط من الذين تأثروا بالمعري تأثراً شديداً : عمر الخيام ودانتي وميلتن .

١ . عمر الخيام ورباعياته

هو غياث الدين ابو الفتح عمر بن ابراهيم الخيام من اهل خراسان في فارس ؛ كان عالماً وشاعراً واديباً ؛ وقد توفي نحو عام ٥١٧ هـ (١١٢٣ م) ، اي بعد موت المعري بنحو خمسة وستين عاماً .

كان بين عمر الخيام وبين ابي العلاء اوجه تباين واوجه شبه ، الا ان اوجه الشبه كانت اكثر ؛ حتى انك لو درست اوجه التباين بينها لظهر لك انها تقوم على فلسفة واحدة في الحياة : عبر حكيم العرب عنها بالانزواء في بيته ؛ وعبر عنها حكيم الفرس بالاندفاع في تطلُّب المرح من خمر ولهو . ومع ان الغاية هنا ان نزي اوجه الشبه ، فان الانصاف يقضى ان ندل على اوجه التباين ايضاً .

كان الخيام عالماً رياضياً من الطبقة الاولى وعالماً فلكياً مما لم يكن متيسراً للمعري ان يطمح اليه ؛ وكان مجاباً للحياة المرحية يشرب ويلهو ويدعو الناس الى ان يشربوا ويلهوا ، بينما كان المعري منكشفاً على نفسه في بيته ينفر من الحياة الاجتماعية ويدعو الناس الى اهمالها والنفور منها .

اما اوجه الشبه فكثيرة جداً : لقد كانا كلاهما شاعرين يميلان الى النقد والتهكم ، وكان يطوف على شعرهما غشاوة صفيقة من التشاؤم ، الا ان ابياتهما كانت تحمل

الحكمة في ظاهرها وباطنها معاً . ولما ادرك المعري ان الحياة متاع العرور، كره هذا المتاع ونفضه من يده ونقرّ الناس منه . اما عمر الخيام فلم ير شيئاً خيراً من ان يعرف من هذا المتاع ويبحث الناس على الغرف منه ما دام الدليل لا يقوم على وجود أحسن من هذا الذي نحن فيه . وكذلك وقف الخيام من الحياة الاخرى موقفاً المعري، ولقد كانا كلاهما متهمين في عقيدتهما عند الناس . وتساهل الخيام في الحث على الفروض الدينية تساهل المعري ، ونظر الى جميع الناس نظرة واحدة لا يفضل سيدياً على عبد ولا رجلاً على امرأة ولا مسجداً على كنيسة الى آخر ما عرف به المعري .

وهناك قرائن كثيرة ايضاً تدل على ان عمر الخيام قرأ شعر المعري وترسمه في معانيه ثم سبك بعض هذه المعاني في قوالب المعري ، ولا غرابة في ذلك فقد كان عمر الخيام يتقن العربية ويؤلف فيها وينظم الشعر ايضاً .

ولكن قبل ان ابدأ المقارنة الوجيزة يجب ان انبه على امرين اثنين : اولهما ان الخيام نال حظوة كبرى بين شعراء الفرس فقلدوا رباعياته ؛ ومنهم من نظم الرباعيات واطافها اليه . واذا كان ما ينسب الى الخيام اليوم من الرباعيات يزيد على الالف ، فان المصادر الاولى والابحاث الدقيقة تدل على ان الخيام نظم نحو مائة رباعية فقط . ولقد كان عدد من هذه الرباعيات المزيفة قريباً من الاصل في المعنى والاسلوب الى حد يبعث التردد في آراء اهل الاختصاص انفسهم . فهل يجوز ان نأخذ الخيام بذنب هؤلاء ونقارن جميع ما نعرف من الرباعيات بشعر المعري، ثم نحكم بنتائج هذه المقارنة على الخيام وحده ؟ واما ثاني الامرين فان هنالك آراء وردت عند غير المعري والخيام ، فلماذا نخيل او يكون الخيام قد اخذها عن اخذها عنه المعري ونصر على ان الخيام تناولها من حكيمة المعرفة مباشرة ؟

على ان الجواب على ذلك ليس صعباً . ذلك لان الدارسين قد وفقوا بعد اكتشاف اصول قديمة الى تصحيح عدد الرباعيات المنسوبة الى الخيام الى تصحيح بعض الالفاظ . وربما صححوا هذه الالفاظ من تحكيم الفطرة والاستنارة بالشاعرية ، ومن درس تفاصيل حياة الخيام نفسها .

على ان هناك شيئاً أهم من تصحيح عدد الرباعيات ومن تصحيح الالفاظ ، هو ان المقلد عادة يت رسم خطوط من يقلده ترسماً دقيقاً ويحاول ابراز الشبه بين ما يفتعله هو وبين ما فعله الشاعر الاصيل . من اجل ذلك يجب ان نقبل الآراء الاساسية كلها - سواء لمينا أكانت للخيام أو لم تكن - على انها دالة على اتجاه عمر الخيام في الحياة .
واما الامر الثاني، وهو ان الخيام قد يكون تناول معانيه من شخص متقدم تناول معناه العلاء، فأمر قليل الاهمية ، ذلك لأن الخيام يت رسم المعري احياناً في فروع معانيه وفي سباق تراكيبه ، وهذه موضوع بحثنا .

*

ان من ابرز الآراء التي تناولها عمر الخيام رأيه في « الكوز » (الكأس) وكيف ان تراب هذه الكأس يكون مرة في جسد انسان ثم يعود الى جسد آخر ، وان الرفق به من اجل ذلك واجب . ولقد ابرز الخيام هذا المعنى في رباعيات كثار تزيد في ترجمة احمد الصافي النجني^(١) على اربع عشرة^(٢) ؛ راجع منها مثلاً (١٤٠ ، ١٢٠ ، ٢٠٥) :

* وجام يروق العين لطفاً ورقة ، ويهفو عليه القلب من شدة الحب ،
تفنن خزاف الوجود بصنعه ويكسره من بعد ذلك على التراب .
* خذ الكوز والاقداح يا منية الخشا وطف بهما في الروض في ضفة النهر ؛
فكم قد هذا الدهر من قدر شادن كؤوساً وابريقاً لاصافية الخمر ؛
* شاهدت ، إن لم يشاهد غير ذي بصر ، ترى جدودي بكفي كل خزاف .
أليس هذا كله قول شاعر المعرة :
فلا يُمس فيخارا! من الفخر عائداً الى عنصر الفخار للنفع يُضرب ؛
لعلّ انا منه يُصنع مرة فياً كل فيه من اراد ويشرب .
وَيُحْمَلُ مِنْ اَرْضٍ لآخِرَى وَمَا دَرَى فواهاً له بعد البرلى يتغرب !
ولا يكتفي الخيام بهذه الصورة ، بل يطلب منك ان ترفق بالتراب الذي تطأه لأنه

(١) اخترت في هذه الموازنة ان اعتمد على ترجمة احمد الصافي النجني لرباعيات الخيام (دمشق ١٣٥٠ هـ ، ١٩٣١ م) ، ولقد اخترت ان استشهد بارقام الرباعيات لا بارقام الصفحات .

كان جسداً لانسان او عيناً لغادة جميلة (١٣٦، ١٣٣) :

* طأ برفق هذا التراب فِقدماً كان انسانَ عينِ ظيِّ غريز .
* لا تطأ ويحك النبات احتقاراً فهو نامٍ من مُزهر الخد نَضْر .
فتأمل هذا المعنى في شعر المعري وكيف انه يذهب به مذهباً اشمل واعمق
وادل على الفلسفة، في قصيدته المشهورة التي يرثي بها صديقاً له :

خفف الوطء . ما اظن اديم الـ ٠٠٠ ارض الا من هذه الاجساد .
وقبيح بنا وان قدّم العرب دهبان الآباء والاجداد .
سر ان اسطعت في الهواء رويداً لا اختيالاً على رُفات العباد !
ومن اوجه الشبه القرينة كلام الخيام على الجنة والنار (١٦) ، ودراسات عن
ابن خلدون لساطع الحصري ٢ : (٢١٥) :

* ما شهد النار والجنان فتى ؟ ايُّ امرئٍ من هناك قد جاء ؟
* « لو أعطيتُ نقداً القدح والحجر والساقى وتجرعت الصبهاء بشفتي لدرت
لك الفردوس الموعود . لا تُصغِر الى قول احد في الجنة والنار ، اذ من ذهب
الى الجنة ومن جاء من النار ؟ » .

وفي ذلك نفسه يقول المعري :

* فهل قام من جدث ميّت فيُخبرَ عن مسمع او مرى
* اترك ههنا الصبهاء نقداً لما وعدوك من لبن وخمر .
حياة ثم موت ثم حشر ؛ حديث خرافة يا امّ عمرو !
* لو جاء من اهل الردى . يُخبر سأت عن قوم وارخت :
هل فاز بالجنة عمّالها وهل ثوى في النار نونجت ؟

ولقد علمت مما تقدم إصرار المعري على تقديم عمل الخير على العبادة ، وان
اداء الفروض الدينية ليس الغاية من الدين اذا كان الانسان يظلم الناس او
يقترى الشر . وفي هذا يقول عمر الخيام (١٨٨ ، ٥٢) :

* ما اسطعت كن لبني الخلاعة تابعاً واهدم بناء الصوم والصلوات -

واسمع عن اُخِيَامِ خَيْرِ مَقَالَةٍ اشْرَبْ وَغَنِّ وَسِرِّ إِلَى الْخَيْرَاتِ !
* دَعِ كُلَّ مَفْرُوضٍ وَمَمْدُوبٍ ؛ وَمِنْ قُوْتِ لَدَيْكَ فَاطْعِمَنَّ النَّاسَ .
لَا تُؤْذِ خَلْقَ اللَّهِ أَوْ تَغْتَبِّهُمُ وَأَنَا الضَّمِينُ غَدًا ؛ فَهَاتِ الْكَاسَا .
وَلَمَلِكٍ لَا تَرَالِ تَحْفَظُ مَا مَرَبِكُ لِمَعْرِي مِنَ الْكَلَامِ حَوْلَ حَيَاةِ الْعَقْلِ
وَالْإِطْلَاعِ عَلَى سِرِّ الْوُجُودِ وَحَوْلِ الْحَيَاةِ وَمَصِيرِهَا ، وَحَقِيقَةِ الْقَبْرِ وَخُلُودِ الرُّوحِ أَوْ
انْعِدَامِهَا ، فَاسْمَعِ الْآنَ مَا يَقُولُ الْخِيَامُ (٢٤١) :

لَيْسَ يَدْرِي سِرَّ الْوُجُودِ ابْنُ انْشَى وَبِتَكْوِينِهِ تَحَارُّ الْعُقُولُ .
مَا أَرَى لِلْفَتَى سِوَى الْقَبْرِ مَشْوَى ، وَهُوَ - لَهْنِي - حِكَايَةُ سَتَطُولُ .
وَإِوَدَ الْآنَ أَنْ أتركَ الْإِسْتِشْهَادَ بِالْآرَاءِ وَأَتِي إِلَى الْفَاطِئِ بِعَيْنِهَا ذَكَرَهَا الْخِيَامُ ،
وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ فِيهَا إِلَّا مُتَأَثِّرًا بِالْمَعْرِي . يَقُولُ الْمَعْرِي فِي رَأْيِ بَعْضِ النَّاسِ
فِي التَّقْوَى وَالتَّوَدُّدِ :

فَالْفَيْتِ الْبِهَائِمِ ، لَا عَقْلُ تَقِيمُ لَهَا الدَّلِيلَ وَلَا ضِيَاءُ .
وَإِخْوَانَ الْفَطَانَةِ ذُو إِخْتِيَالٍ كَانَهُمْ لِقَوْمِ أَنْبِيَاءَ :
فَأَمَّا هَؤُلَاءِ فَاهْلُ مَيْكِرٍ وَأَمَّا الْآخَرُونَ فَأَغْبِيَاءُ .
فَإِنْ كَانَ التَّقَى بَلْمًا وَعَيْبًا فَأَعْيَارُ الْمَذَلَّةِ اتَّقِيَاءُ !
فَانظُرْ كَيْفَ تَعَلَّقَ الْخِيَامُ بِهَذَا الْمَعْنَى حَرْفًا حَرْفًا (٣٤٠) :

كُنْ حَمَارًا فِي مَعْشَرٍ جَهْلَاءَ أَيْقِنُوا أَنَّهُمْ أَوْلُو الْعِرْفَانِ ؛
فَهُمْ يُحْسِبُونَ لِلْجَهْلِ مِنْ لَيْسَ حَمَارًا خَلُوءًا مِنَ الْإِيمَانِ .

وَالْعَيْرُ فِي شَعْرِ الْمَعْرِي الْحَمَارُ ، وَالْأَعْيَارُ جَمْعُهَا .

وَخَذَ الْآنَ هَذَا الْإِتْفَاقَ الْغَرِيبَ ، فَفَقَدَ تَكَلَّمَ الْمَعْرِي عَلَى تَرْكِيْبِ الْإِنْسَانِ مِنْ أَرْبَعِ
طَبَائِعٍ تَحْتَ تَأْثِيرِ الْكَوَاكِبِ السَّبْعَةِ ، فَيَا زَعَمُوا ، وَهُوَ بِيَدِي دَهْشَةٌ :

جَسَدٌ مِنْ أَرْبَعٍ تَلْحَظُوا سَبْعَةَ رَاتِبَةٍ فِي اثْنَيْ عَشَرَ .

فَقَالَ الْخِيَامُ (١١٧) :

يَا مَنْ تَوْلَدَ مِنْ سَبْعٍ وَأَرْبَعَةٍ وَرَاحَ مِنْهَا يَعْأِي سَعْيِي مَجْتَهَدُ .

وقد جاءت الاربعة في الاصل الفارسي سابقة على السبعة ؛ ويلاحظ ان المعري يذكر في بيته منازل الكواكب الاثني عشر ، ولم يذكرها الخيام .
ومن العجيب ان المعري يكثر ضرب الامثال بن اسمه محمود ، ولقد يقصد بهذا الاسم شخصين : احدهما كان على الاغلب اميراً في المعرة ، والآخر هو بلاريب محمود الغزنوي ^(١) وقد بلغ من العظمة والسلطان مبلغاً عظيماً ؛ ولا شك في ان المعري يشير اليه حينما يقول :

أَسْرُثُ أَنْ كُنْتُ مَحْمُوداً عَلَى خُلُقِي وَلَا أُسْرُثُ بِأَنِّي الْمَلِكُ مَحْمُودٌ .
• ما يصنع الراس بالتيجان يعقدها ، وانما هو بعد الموت جلودٌ .

فالخيام يتناول الرجل نفسه ويجعله • ضرب المثل في العيشة السعيدة (٨٩) :

اجلس الى الراح تبلى مَلِكَ مَحْمُودٍ وَأَصْغِرِ لِلْعُودِ تَسْمَعُ لِحْنِ دَاوُودِ .

هذا غييض من فييض كما يقول المتقرون في اللغة ، او قليل من كثير كما نقول نحن .
ولو احببت ان اتتبع اوجه الشبه بين الخيام والمعري لطال علي الاستشهاد وطال عليك
الجلس على هذه الناحية وحدها •

ب . دانتي اليغيري والكوميديا الالهية

ولد دانتي في فيرنتزة (فلورنسة) بايطاليا في آذار عام ١٢٦٥ ('جمادى الثانية ٦٦٣) اي بعد ثلاثة قرون هجرية تامة من مولد المعري . وقد فقد دانتي اياه وهو لما يزل صغير السن (كما اتفق للمعري ايضاً) • وتزوج دانتي ، ولكنه لم يكن سعيداً في زواجه على الرغم من انه رزق من امرأته ستة اولاد ، خمسة منهم ذكور .
وكذلك كانت الاحوال السياسية في ايام دانتي شديدة الاضطراب ولكنه لم يتأخر عن الخوض فيها فاشترك في الحكومة الادارية وسفر لحكومته مرات كثيرة الى بلاطات الامراء •

وتوفي دانتي في ايلول من عام ١٣٢١ (شعبان ٧٢١)

(١) راجع الكلام على عصر المعري •

لم يعترف دانتي من لزوميات المعري ولكنّه ائتمّ بكتابه المشهور « رسالة الغفران »
وبنى عليه ملحمة المشهورة « الكوميديا الالهية » . وقبل الخوض في الموازنة احب ان
اصور لك الكتابين بيضة اسطر .

(اولاً) رسالة الغفران -رسالة كتبها ابو العلاء جواباً على رسالة وردته من صديق
له ، هو ابو الحسن علي بن منصور المعروف بابن القارح (٣٥١ - ٤٢٣ هـ ، ٩٧٢ م -
١٠٣٠ م) وهو حلبي الاصل ومن ائمة الادب وكان يتحامل على بعض الادباء والشعراء
ويرى انهم ببعض ما قالوا او فعلوا ، من اهل بعض الفروض الدينية او شرب الخمر
وقول الغزل ، صائرون الى جهنم .

ولقد كتب ابو العلاء « رسالة الغفران » على لسان ابن القارح ليبين للناس سعة عفو
الله وليدلهم على ان كثيرين من شعراء الاسلام والجاهلية ايضاً ممن يظن بعض الفقهاء
وبعض المتعنتين ، انهم من اهل النار ، يمكن ان يكونوا من اهل الجنة وان يكونوا
قد نالوا النجاة من النار اما بايمان بالله او بعمل صالح لو بنية طيبة ، بصرف النظر عما
اشتهروا به في حياتهم او عما رماهم به الناس من الكفر او الزندقة او ترك اداء فروض
الدين . وفي هذه الاثناء ينتقد المعري آراء بعض العلماء والادباء والفقهاء في الشعر
والادب وفي الاخبار الدينية ، وهو يفعل كل ذلك بتهكم مر وبشئ . من المرح
يقنضيه ذلك التهكم ، على خلاف ما عرفنا في اللزوميات .

وبعد ان يتخيل المعري مقام ابن القارح نفسه في الجنة ، يصف ذلك المقام بما فيه
من شجرة « تأخذ ما بين المشرق والمغرب » عندها جميع اسباب النعيم : خمر لا يسكر
شاربها ، تدار بكؤوس الذهب من اباريق زبرجد علي ندامى زهر يتمتعون باشجى
الاحان . ثم يتخيل المعري نزهة لابن القارح في الجنة ، يرى في اثنائها بعض شعراء
الجاهلية كالاغشى وزهير وعدي بن زيد النصراني والنابعة وحسان بن ثابت وغيرهم ،
وقد دخل كل منهم الجنة بعمل صالح او بايمان بالله وطيد قبل ان يبعث الله
محمدًا بالاسلام .

ثم يجري المعري الحديث على لسان ابن القارح ويجعله يقص علينا كيف استطاع
ان يدخل الجنة وما لاقاه من الشدة في ذلك والهول من الوقوف في المحشر ، بعد ان لم يسمح

له رضوان (خازن الجنة) بالدخول ، مع كل ما لجأ اليه من الوسائل المعروفة في الدنيا كمدحه بالشعر ، والاستشاد على صحة ايمانه وعلى توبته . واخيراً لجأ الى الامام علي يستشفه فلم يشفع له . ثم التفت فرأى الناس مجتمعين وعلم ان فاطمة بنت محمد ستخرج للسلام على ابيها كعادتها . فلما خرجت لفت نظرها ابن القارح فسألت عنه فقيل لها : « هذا رجل صحت توبته وقد توسل بنا اليك ليدخل الجنة . فاشارت فاطمة الى اخيها ابراهيم بان يصطحب ابن القارح . ثم لما وقفت على ابيها ، ذكرت له شأن الرجل وان جماعة من الائمة الطاهرين قد شفّعوا فيه ، فقال محمد صلى الله عليه وسلم : حتى يُنظر في عمله . فلما نظر في عمله وجد انه قد تاب في الدنيا فعلا ، فأذن له بالدخول .

حينئذ اورت فاطمة جارية لها فحملت ابن القارح على الصراط وتبعته به ابراهيم ابن محمد . وتأخرت الجارية بابن القارح ففاتها ابراهيم ، ووقف ابن القارح مرة ثانية يجادل رضوان . فتمقّد ابراهيم ابن القارح فوجده في جدال مع رضوان « فرجع اليه وجذبه جذبة حصله بها في الجنة » .

حينئذ يطوف ابن القارح في الجنة فيلتقي بشعراء يسير بعضهم معه في افياء الجنان فيشهدون المآدب ومجالس الغناء . ويخطر في باله ان يذهب الى مشاهدة اهل الجحيم فيمر بطريقه على مدائن الجن من الذين آمنوا فاستحقوا بايمانهم واعمالهم الدخول الى الجنة فيساوهم عن حقائق ما ينسب الناس اليهم من الاخبار والاشعار والعلم القدرة بأسلوب متهكم مقتدر .

فاذا اطل على الجحيم ابصر ابليس يضطرب في الاغلال والسلاسل ، والزبانية يضربونه بمقارع (اعمدة) من حديد ، فيجاذبه ساعة ثم يتابع سيره في جهنم فيرى من الشعراء بشار بن برد وامراً القيس وعنترة وطرفة والاخلط وغيرهم .

« فاذا رأى قلة الفوائد لديهم تركهم في الشقاء السرمد » ورجع الى الجنة فيلتقي بآدم ومجيات كن قد عمعن في الدنيا صالحاً . وفي كل ذلك لا يغفل المعري عن انتقاد اعتقاد الناس ببعض الاخبار المروية ونقد بعض الآراء الادبية وتفنيد بعض الاجكام والمعتقدات .

واخيراً ينتهي المعري من هذا الوصف الخيالي ، فيرجع الى الاجابة على رسالة ابن

القارح اجابة مباشرة صريحة فيصدي رأيه في بعض مشاهير الأدب والكر كأي نواس والمتنبى
وبشار والوليد بن يزيد والحلاج المتصوف صاحب مذهب الخلول وابن الرومي واي
تمام وعلي بن ابي طالب وعمر بن الخطاب ، او في بعض الموضوعات كالموت والزندقة
والدهر والقراطة ومذهب الخلول والتناسخ وادعاء الالهية والزواج والحرم وما اليها .
(تانياً) موجز الكوميديا الالهية - الكوميديا الالهية رحلة خيالية الى «الدار
الباقية» اتخذ فيها دانتي دليلاً له اشهر الشعراء اللاتين فرجيل (ت ١٩ ق . م) واهتدى
به في طبقات الجحيم ثم في المطهر (على الاعراف) ثم في الجنة . ولقد تفنن دانتي في
وصف الجنة والاعراف والنار ووصف ما فيها من النعيم والحساب والعذاب . وتحيل
المشاهير من الذين عاصروه او سبقوا عصره في اماكن مختلفة هنا او هناك او هنالك ،
ثم وقف يادتهم في شؤونهم ويتطالع الى ما ادى بهم الى اماكنهم .

ولا ريب في ان سعة خيال دانتي وشمول وصفه وقوة تعبيره جعلت من « قصيدته »
هذه احدي روائع الادب في العالم وان كانت رسالة الغفران تنتزع منه فضل السبق الى
هذا الموضوع الطريف المثقف : ان دانتي لا يكتفي بابداء رأيه في بعض الامور
الادبية والفقهية وبعض ما يتعلق بها كما فعل ابو العلاء ؛ واكتنه يتناول بالاستحسان
والنقد مجموع الجهود العقلية على ما كانت عليه الى ايامه .

(ثالثاً) مصادر الكوميديا الالهية - مصادر الكوميديا الالهية اسلامية لا شك في
ذلك ، مستمدة من القرآن الكريم في وصف اسراء الرسول الى بيت المقدس ومن وصف
عروج الملائكة الى السماء ومن وصف الجنة والنار . ثم هي مبنية على قصة المعراج
وارتقاء الرسول الى السموات السبع ، وعلى بعض الادب الصوفي ، وخصوصاً ما جاء في
الفتوحات المكية لمحيي الدين بن عربي من ارتقائه الى الحضرة الالهية ومروره بالعوالم
على ما تراه في مظانته .

اما الفكرة الموحية واما نسق القصة واما تطور الفكرة واما نقد الاحوال ووضع
فلان في الجنة او في النار ، فهو مأخوذ عن رسالة الغفران . وبما ان الكلام في هذا
الكتاب يجب ان يدور حول المعري فسنهمل هنا المقارنة إلا برسالة الغفران .

رابعاً) اثر المعري خاصة في الكوميديا الالهية^(١) - لا ريب في ان المعري نفسه استمد فكرة « رسالة الغفران » من آية الاسراء وقصة المعراج ومن كتب الحديث ومن بعض الاسرائيليات^(٢) . فاذا كان ذلك كذلك فليس من الحق ان نرد كل صورة اسلامية ظهرت في الكوميديا الالهية الى رسالة الغفران وحدها . ولكن يظهر ان هنالك آراء واحوالاً في الكوميديا الالهية لا يمكن الا ان تكون مستمدة من رسالة حكيم المعرة .

ومع ان ثمة فروقاً بين رسالة الغفران وبين الكوميديا الالهية - بدأ المعري رحلته بالجنة ، وبدأها دانتي من جهنم ؛ ثم ان رسالة دانتي اكثر تفصيلاً واشمل موضوعاً ، وكذلك يذهب دانتي بنفسه في تلك الرحلة بينما المعري يبعث فيها صديقه ابن القارح - فان اوجه الشبه والتقليد كثيرة جداً ، وسأقتصر هنا على اشهرها .

(أ) كلا الشاعرين اتخذ رسالته سبيلاً الى اظهار مقدرته الادبية واللغوية ومعرفته بالتاريخ ، والى التعبير عن فلسفته الدينية .
(ب) وكلا الشاعرين اتخذ الاشخاص الذين لقيهم هنالك من البشر المعروفين في ايامه او قبل ايامه ، او من الجن

(ج) وكلاهما جعل اهل الجنة جماعات جماعات ، وجعل اهل النار افراداً افراداً .
(د) وكلاهما وقف على الاشخاص الذين لقيهم يحادثهم ويناقشهم في امور جرت لهم في الدنيا او صاروا اليها في الآخرة . ولقد قلد دانتي في ذلك المعري تقليداً تاماً : كان يسأل عن نفس مافي هدى الى مكانها ، او يرى امامه فجأة نفساً لا يعرفها فيسألها اسمها . وكثيراً ما تجد احاديث دانتي مع اصحابه احتذاء تاماً للاحاديث التي يجريها المعري على لسان ابن القارح مع اهل الجنة والنار .

(هـ) ويدهشك ان ترى « المطابقة » التامة بين دانتي واي العلاء حينما يأتيان الى قوم قد خفف الله عنهم العذاب او بعضه . ان المعري يضع في الجنة قوماً جاؤوا قبل

(١) ان اوفى ما كتب في هذا الموضوع كتاب المستشرق الاسباني المشهور Miguel Asin Palacios واسمه « الاسلام والكوميديا الالهية » .
(٢) الاخبار التي دسها بنو اسرائيل (اليهود) في الادب الديني في الاسلام .

الاسلام كعبيد بن الابرص معاصر امرى القيس ، وكان اسن منه ؛ وكزهير بن الي
سلمي ؛ ويضع فيها ايضاً عدي بن زيد النصراني . وقد سأل المعري عبيد بن الابرص عن
سبب غفران الله له فقال : اني دخلت الهاوية ؛ وكنت قد قلت في الحياة :

من يسأل الناس يحرموه ؛ وسائل الله لا يجيب !

وسار هذا البيت في آفاق البلاد ، فلم يزل يُنشد ويُخفف عني العذاب . . . الى ان
شمتني الرحمة . . . فاذا سمع الشيخ ذاك (يعني ابن القارح) - طمع في سلامة كثير
من اصناف الشعراء .

ويجري ابو العلاء على لسان عدي بن زيد النصراني السبب الذي نجاه الله به من
النار ويجعله يقول : اني كنت على دين المسيح ؛ ومن كان من اتباع الانبياء قبل ان
يبعث محمد فلا بأس عليه ، وانما التبعة على من سجد للاصنام . اما الاخطل فيضعه
المعري في جهنم ويبين له سبب ذلك على لسان ابن القارح فيقول : جاء الاسلام فجزت
ان تدخل فيه ولزمت اخلاق سفيهه وعاشرت يزيد بن معاوية . . . (وقت) :

ولست بصائم رمضان طوعاً ولست باكل لحم الاضاحي .
ولست بقائم كاليوم ادعو قبيل الصبح «حي على الفلاح» .
واكني ساشربها شمولاً واسجد عند منبج الصباح .

ويقند دانتني في ذلك المعري تماماً فيضع في «الاعراف» عند اطراف الجنة قوماسبقوا
ظهور النصرانية كسقراط وافلاطون وارسطو ويوليوس قيصر ؛ او قوما جاءوا بعد
ظهورها ولكنهم خدموا المدنية والعلم وكانوا اولي شهامة منهم ابن سينا . وابن رشد
وصلاح الدين الايوبي ، بينما هو قد وضع في الجحيم رأساً نفرأ من الراء النصراري ومن
باباوات رومية .

ان هذا التساهل الديني ، الذي لم يستطع دانتني ان يبلغه كله ، وهذا الفكر الحر
اسلاميان استحسنهما دانتني في كتابه وتكلفهما وقلد فيها حكيم المعرة .

وهناك امر آخر يجدر بالذكر وهو ان «الاعراف» فكرة اسلامية مجت بها
القرآن الكريم وعنى بها «سوراً بين الجنة والنار» يوضع عليه نفر الذين لا يستحقون
النار باعمالهم ولا يستأهلون الجنة . ولقد اتخذ المعري «الاعراف» في رسالة الغفران

وجعلها باحة بين الجنة والنار وضع فيها الجن واسكن فيها الحطيطة الشاعر المخضرم
الهجاء . اصف الى ذلك ان النعيم والعذاب الجسمانيين هما من خصائص الخلود الاسلامي
في الجنة او النار ؛ وقد تناولهما دانتي من الاسلام .

ويدهشك ايضا ان يكون دانتي قد لقي قبل ان يصل الى الجحيم اسداً وذئبة
وفهداً ، ثم اذا قرأت رسالة الغفران رأيت الاسد يلتقي ابن القارح قبل النار مباشرة .
وهناك مطابقة تامة ايضا بين حديث المعري (على لسان ابن القارح) وحديث دانتي
مع آدم ، كلاهما رأى ابا البشر في الجنة وحادثه وسأله عن اللغة التي كان يتكلمها يوم
خلقه الله .

هذه كناية موجزة في وجوه الشبه العامة بين رسالة الغفران لشاعر المعرفة وحكيمها
وبين الكوميديا الالهية لزعيم الشعر المحدث في الغرب وحامل الادب الاوروبي من العصور
الوسطى الى العصور الحديثة .

وإذا كانت التفاصيل تدل على المطابقة دلالة واضحة فان الامور العامة قد تكون
اشد دلالة ، وخصوصاً اذا كانت تجري مجرى القوانين . من ذلك ان رحلة البشر الى
العالم الآخر فكرة اسلامية لا يمكن ان يكون دانتي قد اخذها من غير الاسلام .
ولكن يجب ان يكون قد تأثر فيها برسالة الغفران للمعري خاصة ، ذلك لان الاسلام جعل
اسراء الرسول من مكة الى القدس من معجزات الرسول وحده . ومن آية الاسراء هذه
نشأت قصة المعراج التي تفصل رقي الرسول الى السموات السبع ولقيانه الانبياء والرسل
ووصله الى عرش الرحمن ؛ على ان الاسراء والمعراج ظلما من معجزات الرسول . واول
من فكر بان يرسل البشر العاديين في هذه الرحلة الخيالية كان المعري . ثم ان قصة
المعراج لا تذهب بحمد عليه السلام الى جهنم كما فعل ابو العلاء بابن القارح ، فعلى هذا
يكون دانتي متأثراً بالمعري مباشرة .

وأرى ان اقف بالقاري . عند هذا الحد ، وإلا تجاوزنا الحد الذي اقتناه حول هذه

ج . جون ماتن والفردوس المفقود

ما مدى تأثير جون ماتن في قصيدتيه الكبيرتين : الفردوس المفقود والفردوس الموجود برسالة الغفران للمعري ؟

لقد تأثر جون ماتن بالفكرة الاسلامية كما تأثر بها دانتي ، ولكن تأثره بالمعري مباشرة كان قليل البروز او قليلا على الاصح . ولعل ايجاز حياة ملتن واجمال فكرة قصيدتيه مما يعيننا على فهم الموازنة بين الشاعر الانكليزي والشاعر العربي حينما نأتي الى الموازنة بينهما .

ولد جون ملتن (١٦٠٨-١٦٧٤) كاثوليكياً و اراده ابوه ان يترهب ثم اخذ في اعداده لذلك . ولكن جون نفر من الرهبانية وصبأ من المذهب الكاثوليكي الى المذهب البروتستانتي . ومع ذلك فقد كان كثير النقد لمذهبه الجديد ، يميل في اصلاحه الى درجة اغضبت عليه رجال الدين ورجال السياسة ، وخصوصاً حينما طلق امرأته الاولى بعد شهر واحد من زواجهما وتزوج بثانية ونشر بعض الرسائل والكتب في تبيان فلسفته في الطلاق . وفي ١٦٥٢ اصيب بفقد بصره ؛ وكانت امرأته الثانية قد توفيت فتزوج ثالثة مكانها . ولزم ملتن بعد ان عمي بيته وانصرف منذ ١٦٥٦ الى نظم قصيدته الكبرى : الفردوس المفقود فاتمها في بضع سنوات ؛ ثم نظم قصيدة اصغر حجماً و اقل شأنًا في رأي النقاد قبل ان يتيسر له طبع القصيدة الاولى .

تدور قصيدة « الفردوس المفقود » حول الفكرة الدينية العامة التي تقول ان الله لما خلق « الانسان » وضعه في الجنة ، ثم ان الشيطان اغواه فعصى الله فاهبطه الله الى الارض ؛ وهكذا فقد الانسان الفردوس .

اما قصيدة الفردوس الموجود ، وهي في الحقيقة تنتم للفردوس المفقود فتبسط النظرة النصرانية التي تقول ان الله اشفق على «الانسان» فارسل ابنه ليحل ابناء الانسان من خطاياهم . فلما تم ذلك وجد الانسان الفردوس من جديد . ولا ريب في ان موضوع الموازنة يجب ان يتناول « الفردوس المفقود » فقط .

يرى بعض النقاد الانكليزي ان شاعرهم اطالع على كتب كثيرة في الموضوع الذي نصب نفسه للكتابة فيه ، ولكنه لم يقلد شيئاً منها ويستشهدون على ذلك بقول ملتن نفسه عن قصيدته في قصيدته نفسها .

تقص امور لم يُحاول شيئاً الى اليوم في نثر (مفيد) ولا نظم .

واما العلماء والنقاد في علم الشعر وفي الفلسفة فينظرون الى الفردوس المفقود من ناحية ثانية : ان هذه القصيدة ليست ملحمة في الدرجة الاولى ولكنها معرض شعري لآراء ملتن الدينية ؛ وهي لا تشبه الكوميديا الالهية لدانتي (cf . Enc. R.E. viii 646 d) وذا ايقنا ان شاعرية ملتن هي التي رفعت هذه القصيدة في سما الازب الانكليزي مكاناً علياً - وهي خليقة بذلك - رأينا ان الموضوع في نفسه فطري وان الفكرة الاساسية التي ينطوي عليها ذلك الموضوع بسيطة جداً .

واذا انعمنا النظر في تفاصيل « الفردوس المفقود » ادركنا حالاً ان هذه الاخيلة التي فيها ليست اخيلة مسيحية فخرج آدم من الجنة لا يجري عند ملتن مجراه في التوراة^(١) ، بل هي مزيج من الخيال الوثني والخيال المسيحي ؛ اما صورة ابليس فليست الصورة المسيحية ابداً : ان هذا الجدال الذي يشور بين الله وبين ابليس بعد ان رفض ابليس ان يسجد لآدم قرآني بحت ؛ وكذلك تجيش ابليس لجنوده ومحاولته اغواء البشر كلهم : « واذا قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم ؛ فسجدوا الا ابليس ، قال : أنسجد لمن خلقت طيناً ؟ (و) قال : أرأيتك هذا الذي كرمت علي ؟ لئن أخرتني الى يوم القيامة لأحتنكن ذريته (اغويهم) الا قليلا قال : اذهب ؛ فمن تبعك منهم ، فان جهنم جزاءكم جزاء موفورا . واستغزوا من استطعت منهم بصوتك ، وأجلب عليهم نجياك ورجلك (فرسانك و جنودك المشاة) ، وشاركهم في الاموال والاولاد وعدهم يوماً يعدهم الشيطان الا غروراً . ان عبادي ليس لك عليهم سلطان فكذبوا

(١) سفر التكوين ، الاصحاح الثالث . (٢) سورة ١٧ (الاسراء) ؛ ٦٠ وما بعدها .

فيها ^(١) هم والناورون ، وخنود ابليس اجمعين ^(٢) . . . »

هذه هي الفِكر التي تدور حولها قصيدة الفردوس المفقود : اخراج ابليس من الجنة ؛ جمع ابليس لجنوده واتباءه ؛ محاولته الرجوع بالقوة الى الجنة ؛ خيبته بإرسال الله عيسى لدحر الشيطان وانقاذ البشر .

ان ملتن متأثر بالقرآن الكريم عموماً فما مدى تأثره بابي العلاء خاصة ؟
اذا كنت لا تستطيع ان اثبت ان ملتن قد قلد ابا العلاء فاني استطيع ان اوجه المطابقة بين الشعارين في المجازي العامة التالية :

- ٠١ المرأة في خرق البشر الحجاب الفاضل بين الدنيا والآخرة .
- ٠٢ العذاب المادي الجسماني .
- ٠٣ عرض الحقائق والفضائل الدينية على ما يتخيلها ابو العلاء وملتن لا على ما عرفه معاصروهما .
- ٠٤ ان صورة ابليس واحواله في الفردوس المفقود، وخصوصاً في الكتابين (الفصلين) الاول والثاني ، لا تشبه ما ورد عنها في المسيحية .

*

اذا تأملنا هذا الاثر البالغ الذي تركه ابو العلاء المعري في الشرق والغرب ، مما قصصناه أو لم نقصه هنا ، ادر كنا قوة هذه العبقرية التي تجلت في حكيم المعرة ، ووحق لنا ان نفتخر به كما يفتخر الغربيون بكبار شعرائهم وفوق ما يفتخرون ، ذلك لأن شاعرنا نحن هو الذي اوحى الى نفر من شعرائهم هم ، ما استطاعوا ان يخلدوا به على وجه التاريخ .

** **

ولو اننا اتينا الى اكثر شعرائنا وحكمائنا وفلاسفتنا وعلماؤنا لوجدنا عندهم مثل ما نجد عند المعري واكثر مما نجد عنده ؛ ولكن هناك نفرأ منا في اماكن متعددة يريدون

(١) القوا في جهنم . (٢) (الشعراء) : ٩٤ و ٩٥ . راجع ايضاً : ٢ : ٣٤ ، ٧ : ١٠ ،

ان يغضوا دائماً من مكانة رجالنا ويخطوا من قدرهم ، إما تزئياً عند الجهال بالمعرفة والعلم ، وإما ترفاً الى نفر آخرين ، وإما تكسباً لدراهم معدودات ما يستطيعون ان يكسبوها من اوجهٍ أُخَرَ . وكثيرون من هؤلاء ينطبق عليهم قول ابي الفرج الاصفهاني ، صاحب كتاب الاغاني ، في الدفاع عن ابي تمام حينما قال ^(١) : « وفي عصرنا هذا ٠٠٠ اقوام يتعمدون الرديء من شعره فينشرونه ويطوون محاسنه ، ويستعملون القبحه والمكابرة في ذلك ليقول الجاهل بهم انهم لم يبلغوا علم هذا وتمييزه الا بادب فاضل وعلم ثاقب . وهذا مما يتكسب به كثيرون من اهل هذا الدهر ويجعلونه ، وما جرى مجراه من ولب الناس وطلب معائبهم ، سبباً للترفع وطلباً للرئاسة ا » .

ولكن لا تبتئس يا ابا العلاء ، ان من سار مع الدهر الف عام سيسير الدهر معه الى الابد !

٤ - ٣ - ١٩٤٤ .

سلسلة الكشاف الادبية

- | | | | |
|---|-----------------------------|---------------------|-------------------|
| ١ | ابو نواس اول | (دراسة ونقد) | الدكتور عمر فروخ |
| ٢ | = ثان | (مختارات من شعره) | = = = |
| ٣ | يوسف | (مسرحية) | محمد يوسف حمود |
| ٤ | فقيه امام القضاء | (اجتماعية) | يوسف يزبك |
| ٥ | ابو تمام | (دراسة ونقد) | الدكتور عمر فروخ |
| ٦ | رحلة الى بلاد المجد المفقود | (فنية) | الرسام مصطفى فروخ |
| ٧ | سلوى | (عاطفية) | الحوماني |
| ٨ | حكيم المعرفة | (دراسة شاملة) | الدكتور عمر فروخ |

نحت الطبع

- | | | | |
|---|---------|-----------|------------|
| ٩ | العذارى | (قصصية) | توفيق عواد |
|---|---------|-----------|------------|

سلسلة الكشاف العلمية

- | | | |
|---|---------------------------------|----------------------|
| ١ | تاريخ التربية | عبد الله مشنوق |
| ٢ | محاضرات في التربية والتعليم اول | واصف بارودي |
| ٢ | = = = = | مفتش التعليم الثانوي |
| ٤ | = = = مقالات | = = = |